

محفوظتِّ جَمِيْعُ الْحِقُوْقُ الطبعة الأولى

المملكة الأردنية الهاشمية رقم الإيداع لدى دائرة المكتبة الوطنية (2024/7/4329)

عنوان الكتاب: الغريق تأليف: منير خليل عبدالله مرعي بينانات النشر: الزرقاء: منير خليل عبدالله مرعي روم التصنيف: 813.03 الوصف المادي: 111 صفحة الواصفات: الروايات العربية /الأدب العربي/ العصر الحديث الطبعة: الطبعة الأه لي

يتحمل المؤلف كامل المسؤولية القانونية عن محتوى مصنفه و لا يعبر هذا المصنف عن رأي دائرة المكتبة الوطنية أو أي جهة حكومية أخرى

(ردمك) ISBN 978-9923-0-1265-9

جميع الحقوق محفوظة، لا يسمح بإعادة إصدار هذا الكتاب أو أي جزء منه أو تخزيته في نطاق استعادة المعلومات أو نقله بأي شكل من الأشكال دون إذن خطي مسبق من المولف .

All rights reserved. No part of this book may be reproduced, stored in a retrieval system or transmitted in any form or by any means without prior permission in writing of the author.

أهدي هذه الرواية إلى ثلاثةٍ من أعرِّ أصدقائي:

الواقع، المنطق، والحقيقة.

کم یا تری؟

كان شمساً لملأت الكون نوراً وضياءً لو أن كان عزفاً لمّايلت الكواكب طرباً وابمّاجاً لو أن كان صمتًا لسمعت لجناح الفراشة خفقاناً لو أن كان قفلاً لما وجد الباحثون له مفتاحاً لو أن كان صدقاً لضلّ الكذب في الدنيا وتاه لو أن كان كنزاً لهت الذهب أمامه وبال لو أن كان داءً لأهلك الكائنات جميعاً وما أدام لو أن كان ريحاً لسهل تحليق الجبال وهان لو أن سمعت طنيناً حاداً في أذني، اليوم سأرى أشعة الشمس مجدداً، يا لقلَّة التنظيم، لم تنته السنوات السبع بعد، حمقي. قدم إلى الحارس السمين ساعة الشروق يحمل خبر الفرج، أكاد أكون شبه متأكد من أنه ظنّ أنني سأطير فرحاً لدى سماعي لما لديه. أحمق عديم الإبداع، رأيت ابتسامته الخرقاء وهو يقف أمام الزنزانة ليقول لى بكل سخف:"تهانيّ الحارة أيها الغريق، منذ اليوم، أنت حرُّ طليق!". بقى مستيقظاً الليل بطوله، ينظم هذه الكلمات كي تبدو بهذا الشكل المتزن، بل ربما قد كتبها مرات عدّة حتى يطالع شكلها الأنيق، ورددها في نفسه وربما بصوت مسموع مستمتعاً بنغمها الردىء. تناولت قرطاسي المسطّر وأطلقت تنهيدةً منزعجةً. درت بناظرى بين جدران الزنزانة الضيقة، أجد صعوبة في ترك هذا المكان، لعلَّى قد أحببته حقاً؛ العزلة المطبقة، بقايا الطعام سيء المذاق، برد الشتاء القارص، وحر الصيف الحارق، الحشرات المقرفة ليلاً، والغطاء القذر الذي ألف به قدمي المتجمدتان، يا إلهي لم سأترك هذا المكان؟!

قادني الحارس السمين عبر الممر الطويل إلى مكتب رئيس القسم، القسم، ماذا كان اسمه؟ ليس مهماً، السيد رئيس القسم، ليس شخصاً يستحق المعرفة حتى، اتكأت على باب المكتب منتظراً الحارس السمين لنكل السير، تحدث إلي رئيس القسم لكنني لم أكن أصغي إليه، قام نحوي بحركة رزينة مصطنعة وراح يعبث بأحد أزرار قيصي أبيض اللون وقال: "ستخرج اليوم، أنت تدرك ذلك؟"، هززت رأسي بعدم اكتراث مشيراً إلى أنني أفهم أياً كان ما يتحدث عنه، بدا أنّ تصرفي لم ينل إعجابه في تلك اللحظة، أذكر أنه قد صفعني أو قام بفعل مشابه يشير إلى شدة حنقه.

أعتقد أنك بعبقريتك الفريدة، قد أدركت أنني كنت في السجن، أتمنى أن تستمر على هذا النحو، فلا طاقة لي بالشرح والتفصيل في دقائق الأمور.

تابعنا السير أخيراً، بعد أن خاض رئيس القسم والحارس السمين الأخرق، جدالاً شديد الضجيج، صعدنا درجاً حتى وصلنا إلى الطابق الأول، نظرت إلى الشمس مطولاً إلى أن أغلقت عيناي من تلقاء نفسيهما، كنت أقف كالأبله فاقد الإحساس، كلتا يدي في جيوب بنطالي القصير أسود اللون، أشعث الشعر ذو نظرات حادة كنصل سيف أسطوري، غيل بطبيعة الحال، طويل ممدود القامة.

شعرت بالدفء حين لامست قدماي العاريتان الأرض الحارة، وددت لو يمكنني البقاء على حالتي تلك إلى الأبد.

شعرت قدماي بالدفء للمرة الأولى منذ سنوات، حتى أنهما اصطبغتا بدرجة من اللون الأحمر. لكزني الحارس بذراعه وناولني بضع قطع معدنية، وطالبني بالمغادرة، وكأنني أملك مكاناً أذهب إليه، يا للسخرية، ألقيت بالعملات المعدنيّة باتجاه، وسرت في اللحظة ذاتها بعكس ذاك الاتجاه، غير قاصد مكاناً محدداً. أذكر بالطبع أن الحارس السمين الأخرق قد هرع إلى حيث ألقيت العملات المعدنيّة ككلب متلهّف، يبدو أنه رغب بها أكثر مما فعلت. كنت أسير بين منازل القرية، راودني شعور بأنني قد قدمت إلى هنا سابقاً، بل ربما كنت أعيش هنا. لاحظت بين الفينة والأخرى عدداً من الناس يطالعونني بترقب، لا أعلم ما هو اللافت في مظهري حتى يطالعني أهل القرية جميعهم. تذكرت حينها أنني أشعر بالجوع، أين سأجد طعاماً الآن يا ترى؟ القمامة بالطبع. بحثت عن أقرب قمامة ملقاة خارجاً، ولم يطل بحثى حتى وجدت تجمعاً للقمامة وسط القرية، لكنني للأسف أعجز عن إشباع معدتي بها، لم أكن جائعاً إلى حدّ يدفعني لأكل البشر.

استطعت الصمود حتى وقت الظهيرة، لكنني وصلت إلى أقصى حدود الجوع ولم أعد أستطيع الاحتمال أكثر، كان علي الحصول على الطعام بأي طريقة ممكنة، ولحسن حظّى...كانت لدي مئات الطرق الممكنة.

غسلت ثيابي من ماء النهر قرب القرية، وسمحت لنفسي بأن استحم أيضاً. انتظرت حتى تجفّ ثيابي، ولأننا في فصل الصيف، لم أنتظر طويلاً. سرعان ما جفّت ثيابي، فارتديتها وقمت ببعض الطيّات التي منحتني مظهراً متأنقاً للوهلة الأولى. سرحّت شعري بثمرة صنوبر وجدتها قرب النهر، وطحنت بعض الزهور ذات الرائحة الجميلة كي أعطّر بها ملابسي، لم

يكن حلاً فعالاً جداً لكنه لم يكن سيئاً كذلك. وأخيراً كان على البحث عن حذاء، يقوم بعض أهل القرية بترك أحذيتهم على عتبة منازلهم، وبين الحين والآخر، ينظم أطفال اليهود حملات لسرقة الأحذية، حين يكونون في حاجة إلى ذلك، أى كل شهر تقريباً. يخبئونها في مكان ما في الغابة الخضراء، هذا ما يطلقونه على الغابة أسفل الوادي، على كل حال، بقليل من البحث، بإمكاني إيجاد مخبأ الأحذية ذاك، وأود أن أفعل ذلك قبل أن يحل الظلام، وقبل أن أموت جوعاً. سرت بقدماي العاريتان بين أشجار الغابة الكثيفة، باحثاً عن مخبأ الأحذية الذي لمحته مرّة قبل عدّة سنوات. كانت ذاكرتي ممتازة إلى حدّ ما، حتى أنني تمتعت بذاكرة تصويرية جيدة، حيث أنني أملك القدرة على استرجاع صفحات من النصوص أو الأرقام أو ما شابه ذلك بتفاصيل كبيرة. يبدو الأمر خيالياً لكنني وجدت مخبأ الأحذية في تلك اللحظة. كانت حفرة مستديرة أسفل شجرة زيتون ضخمة، لم تبدو لي من صنع البشر، أظنها كانت جحر قارض صغير قبل أن يستولي عليها أطفال اليهود ويحولوها إلى مخبأ للأحذية المسروقة.

بحثت بين كومة الأحذية عن حذاء يلائم قدمي، كنت أتجنب أي حذاء ذا لون براق، فبالتأكيد سيميزه مالكه فور رؤيته ويسبب لي مشكلة صغيرة، لذا اخترت حذاءاً أسود اللون، مستدير الرأس بسيط الشكل، أحسب أنه سائد بين أهل القرية رجالاً ونساءًا، صنعت صليباً خشبياً بسيط الشكل بالاستعانة ببعض الأغصان والحبال، وسرت متجهاً إلى القرية.

كنت أبحث عن منزل حجري حديث البناء، وسرعان ما وجدت ضالتي عند أطراف القرية بجانب التل طرقت باب المنزل الخشبي بهدوء، وتمنيت في تلك اللحظة أن تفتح الباب امرأة، امرأة، امرأة، امرأة مسنة، قصيرة حدباء، ساذجة بطيئة الفهم، مددت الصليب الخشبي وبصوت مهيب قلت: - "اسمحي لي أن أخلصك من شرّ الشيطان في هذا المنزل!".

"شياطين؟ في منزلي أنا؟".

قلت بعد أن جلت بنظرات خاطفة في المنزل:

- "الفقر، الحظ السيء، الصحّة المتدهورة، كلها من أفعال الشطان اللعن!".

شهقت العجوز بخوف وقالت برجاء:

- "أرجوك سيّدي المحترم، خلصني من شرّ الشيطان في منزلى!".

تقدمت بخطى ثابتة وقد رسمت ملامح تبدي هول الموقف على سحنتي. ومددت الصليب أمامي كأنه الدرع الحامي والسيف القاطع. بين الأثاث وتحت السجاد، في المطبخ والحمام، تحت السرير وفي العلية، جلت في جميع أرجاء المنزل، اورتعدت بين الفينة والأخرى، مبيناً أن العمل شاق وخطير.

"آه، لا قبل لي بجزاء فعلك سيّدي المحترم، دعني أقدم لك بعض الطعام". قالت العجوز فور انتهائي من المسرحيّة المبتذلة. "الطعام خير ما تقدمين لي، فقد خارت قواي بسبب ذاك الشيطان اللعين". قلت وابتسامة النصر تكلل شفتي، لأكون صادقاً، كان الطعام لذيذاً للغاية، ومتنوعاً كذلك، أشبه بمأدبة مصغّرة، تناولت الطعام حتى شبعت، ودّعت العجوز بعد أن دعوت لها بالحرص والحماية من الرب، بدأت

رحلتي للبحث عن مأوى وانتهت بسرعة، فقد تذكرت أنني أملك كوخاً جميلاً فوق التل.

صعدت إلى كوخي الخشبي بمعدة ممتلئة، وجسد نعس متعب. فتحت باب الكوخ، ولم أجد شيئاً، كان الكوخ خالياً مهجوراً. "بالطبع، لقد سرق متاعى كاملاً، هذا منطقى". قلت في سرّي. كان متاعي قد سرق كاملاً، ولكن الجانب الإيجابي، أن السرير ما زال موجوداً، والفراش كذلك! هذا كل ما أحتاج إليه، حان وقت النوم أخيراً، النوم على فراش لا على الأرض. استلقيت على الفراش بعد أن أزلت الغبار المتراكم لسنوات فوقه، وبدأت دوامة الأفكار ما قبل النوم بالدوران. "سيأتي ذاك الشاب أليس كذلك؟". قلت. كنت في حيرة من أمري، أو لنقل أنني كنت تائهاً، أو غريقاً كما يدعوني الجميع. بالرغم من تذكري لكل شيء الليلة الماضية، إلا أنني نسيت أهم شيء...فطور اليوم التالي! استيقظت جائعاً بطبيعة الحال، "أين سأجد طعاماً الآن؟ لا أملك مالاً حتى". طرحت السؤال على نفسي، فكرت في العمل لكسب المال، لكنني لا أظن الأمر يستحق حتى، ليس بعد كل ما حدث، لذا قررت أنني سأنتظر، إلى حين يأتي ذاك الشاب، بالطبع سيأتي، وحين يعلم أن متاعي قد سرق، ولم أعد أملك شيئاً، سيحضر لى الطعام، وربما المال كذلك.

بعد الشروق بلحظات، وصل الزائر الذي كنت في انتظاره، شعرت أنني انتظرت لسنة كاملة! أذكر أنه حيّاني بحماسة، واحتضنني بين ذراعيه، وقال بعض الكلمات مثل: "الحمدلله أنك بخير" "لا بأس عليك" "سيكون كل شيء على ما يرام"، وما إلى ذلك من كلمات الاطمئنان والسعادة، أظنه قد

ذرف بعض الدموع أيضاً. أجلسته على مقعد خشبيّ متهالك، واتخذت لي مقعداً على السرير قبالته، وحاولت الابتسام قليلاً، قليلاً فقط.

"كيف كانت سنواتك الأخيرة؟ أعلم أن الأمر كان صعباً، هل عاملوك بعنف؟ أتعرضت للضرب؟". سأل بلهفة نقيّة عاماً.

"كان وقتاً لطيفاً، كانت زنزانتي واسعة، احتوت على سرير مريح إلى حدِّ ما، ومكتب خشبي صغير، كان الطعام مقبولاً، وعاملني الحراس بلطف". كذبت بكل وقاحة. "الجمدلله الجمدلله، هذا ما يجب أن يكون، بالتأكيد سيعاملك الحرس بلطف، هم يدركون جيداً أنك لم تكن الفاعل، الجميع يدرك ذلك، أنت بريء تماماً، ذاك المجرم اللعين هو الجاني، آه لو أجده، سأقطعه إرباً بيدي هاتين!". قال متعاطفاً، "هدّئ من روعك، سار كل شيء على ما يرام". قلت محاولاً كبح

غضبي. "بل لقد تعرضت للظلم، ولن أسامح ذاك المجرم الوقح طيلة حياتي!". هتف قائلاً. قمت عن السرير في نصف وقفة وقلت وأنا أمسح جبيني منتقلاً إلى ما يهمني حقاً:

- "أرجو أن تعذرني فكما ترى، تعرّض الكوخ للسرقة، ولا أملك مالاً ولا طعاماً أقدمه إليك".

هب واقفاً ونفخ صدره مظهراً تحمّله للمسؤوليّة وصاح قائلاً: - "أبداً يا صديقي! لا عليك من الطعام والمتاع والمال، سأحضر لك كل ما تحتاج من متاع! بل إنني ذاهب الآن من فورى!".

أظنني شكرته أو قلت شيئاً مشابهاً. غادر الكوخ مسرعاً وراقبته من النافذة الزجاجيّة المؤطّرة، ارتعشت إذ شعرت بالاشمئزاز من الطبيعة البشريّة.

طيلة السنوات المنصرمة، كنت أحاول تذكر اسمه، ذاك الجرم، في القضية منذ سنوات، لكنني بدل تذكّر اسم ذاك المجرم، راودتني فكرة خياليّة! فكرة رسمت ابتسامة صادقة على شفتي للمرّة الأولى منذ سنوات! والتي سأشرع بتنفيذها، بعد أن أتناول فطوري بالطبع، أين ذاك الأحمق أريد فطوراً فحسب.

الفصل الأوّل: الوجه المجهول للقاتل.

عاد الشاب الأحمق بعد طول انتظار، كان قد أحضر الطعام والشراب ومعزة بيضاء، لترعى لدي في الحقل، وأستفيد من لبنها سواء للطعام أو للبيع، ربط الشاة الصغيرة إلى وتد مغروس في أرض الحقل، واقتحم الكوخ يحمل خبزاً وجبناً وبعض البقوليات، بالإضافة إلى زجاجة حليب وزجاجة ماء أخرى، عجبت أتى له أن يحمل كل هذه الأطعمة بين يديه، لكنّ جئته الضخمة جعلت الأم يبدو منطقياً. قال:

- "إليك القليل من الطعام والشراب، وتلك الشاة الصغيرة ملكك الآن، يمكنك الاستفادة من لبنها كيفما تشاء، وقد تحدّثت إلى السيّد *** صاحب العربة، ليحضر على متن عربته، الأثاث الخشي من منزل المتوفى ***".

ويحي لقد نسيت أن أصف كيف يبدو، إنه شاب طويل عريض المنكبين، ذو رقبة ثخينة ممشوقة، ووجه ممتلئ مستدير، عيناه واسعتان على نحو مخيف، لكنّ صوته رقيق حنون، وبالطبع، هو ساذج عديم الإبداع. قلت بصعوبة:

- "أنا جدَّ شاكرٍ لإحسناك تجاهي، لكنني لا أستطيع أن أقبل الشاة، أعذرني رجاءً".

سأل بصوته الرقيق:

- "ولم لا يا صديقى؟".

أجبت بحزم:

- "لأنني سأبحث عن ذلك المجرم!".

أضاء وجهه واغرورقت عيناه بالدموع وصاح قائلا:

- "نعم! نعم بالتأكيد! سأساعدك في البحث عنه! عليك الثأر لوالدك!".

قلت متظاهراً:

- "لا أريدك أن تتورط في هذا الأمر، شكراً لك على ما قدمته لي حتى الآن، ربما من الأفضل أن أخوض في هذا وحيداً".

ردّ عازماً:

- "أقسم أنني سأساعدك في البحث عنه والانتقام لوالدك! وإلا كيف سأرد ديني إلى والدك المحترم؟!".

اصطكت أسناني دون إرادتي، لكني سرعان ما أخفيت تلك الملامح، واستبدلتها بنظرات الأمل والعزيمة والحزم، وافقت على طلبه في أن يصحبني في رحلتي للبحث عن ذاك المجرم اللعين، والانتقام لوالدي أو أياً يكن، اصطحب الشاة الصغيرة وغادر الشاب الكوخ إلى منزله بعد أن تناولنا الطعام وتبادلنا أطراف الحديث، قدم السيد صاحب العربة يحمل معه الأثاث الجديد لكوخي، ساعدته في نقل الأثاث إلى داخل الكوخ وقت بترتيب المكان كما أرغب، جلست خارجاً بصحبة القلم

والقرطاس المسطر، دونت الخطّة بحذافيرها إضافة إلى التفاصيل الحركيّة والصوتيّة.

صباح اليوم التالي، تناولت الفطور وقمت ببعض الخربشات العشوائية، ثم غادرت الكوخ متجهاً إلى منزل الشاب، إذ اتفقنا البارحة على أن آتي إلى منزله صباحاً، لنطوف بأهل القرية نسألهم عن ذاك المجرم اللعين، لعل أحدهم يملك معلومة تقودنا إليه. لمحت في طريقي إلى منزل الشاب، مجموعة من أطفال اليهود، يتشاجرون فيما بينهم، فأخذني الفضول واقتربت لأسترق السمع.

"أنتم سارقون! إنها تنقص زوجاً من الأحذية". قال طفل يبدو أكبرهم سنّاً."تتهمنا دون برهان يا لافي؟!". ردّ عليه طفلً آخر يبدو أنه المتّهم.

"ومن غيركم سيفعلها أيها الفقراء الملاعين؟!". هتف الطفل بكلمات جارحة. قررت التدّخل في تلك اللحظة، فسرت أمامهم ورددت بصوت مرتفع:"لا أعلم ما كنت سأفعل إن لم أجد هذا الحذاء في الغابة، يا لي من شاب محظوظ!". التفت إليَّ الأطفال جلُّهم، قال أكبرهم بحنق:"أنت أيها الشاب، من أين حصلت على هذا الحذاء؟!". رمقتهم بنظرة حادّة جعلتهم يرتجفون خوفاً وبصوت مخيف قلت:"إلى من تتحدّث أيها الحقير؟". وخلال ثوان كان الأطفال يركضون جزعاً وهم يصرخون:"الغريق! إنه الغريق!". أطلقت قهقهةً شريرة وتابعت السيّر إلى منزل الشاب. كم أحب الأطفال، فأيًّا كان ما تخطط له، بسبب كونهم بسطاء عديمي الإبداع، سينجح مالتأكيد!

وصلت بعد مدّة ليست بالقليلة، إمّا أنني أصبحت عجوزاً أو أن منزل الشاب بعيد حقًّا، طرقت باب المنزل الخشبي برفق،

انتظرت لدقيقة حتى فتح الباب وظهر الشاب الضخم خلفه مرحبّاً، قادنى إلى الداخل وأجلسني في غرفة واسعة مليئة بالأثاث، صبغت جدرانها بلون أزرق داكن، وتميّز أثاثها بلون بني داكن. تبدو ألوان الغرفة غير متناسقة من النظرة الأولى، لكنك تجد فيها جمالاً مختلفاً حين تمعن النظر في تفاصيلها. قدُّم الشاب لي كأساً من الماء، وبعض الفاكهة، واستأذنني فى أن يستعد لنبدأ جولتنا حول القرية. تناولت حبَّة تفَّاح حلو الطعم كالعسل، وسرحت بناظري في خزانة خشبيّة في الواجهة الأماميّة من الغرفة، كانت خزانة طويلة عريضة، ذات أبواب زجاجية في نصفها العلوي، وأدراج بمقابض ذهبية في النصف السفلي. لكن الذي شدّ انتباهي حقّاً، كان خنجراً أثريّاً وضع على أحد رفوفها، خنجر صغير مرصّع بالأحجار الكريمة، وترتبط بطرفيه سلسلة ذهبية طويلة، يجلس على حامل من خشب البلوط إن لم أكن مخطئاً. قمت نحو

الخزانة وبحركة خاطفة خبأته بين طيات ملابسي، ووقفت بالباب أنتظر عودة الشاب.

انتظرت إلى أن أصدر عمودي الفقري أنيناً، حتى أقبل الشاب أخيراً وسرنا إلى القرية بهدوء، قصدنا بيوت القرية بيتاً بيتاً، سائلين السؤال نفسه، دون أن نحصّل النتيجة المرجوّة، لكن ما أثار إعجابي بنفسي حقّاً كان، أن جميع من في القرية يقرون ببراءتي من الاتهام الذي وجّه إلي قبل سنوات، لم يحن الوقت بعد لأسرد تلك القصّة، لكنني أوجزها هاهنا بكلتين اثنتين: "قتل والدى".

أثناء جولتنا بين منازل القرية، توقفت عند عجوز يبيع الأعشاب، تربطني به معرفة قديمة جداً. أحضرت ما يلزمني لما سأفعل تالياً، وقدت الشاب الأحمق، إلى منزل مهجور أعلى

الجبل خلف القرية. "ما هذا المكان؟". سأل الشاب ببساطة. "هذا هو مسرح الجريمة، حيث قتل والدي سابقاً". أجبت وأنا أصب الماء في كؤوس زجاجية. "وكيف وصل والدك إلى هنا؟". سأل بالبساطة ذاتها. "لابد أن القاتل قد قاده إلى هنا، رغماً عنه". قلت مخمناً. لم يعلق بشيء، ناولته الكأس الزجاجية وقلت بعد أن تجرعها دفعة واحدة: "نوماً هنيئاً".

إنه منزل حجري متهالك، به جدران مدمّرة بفعل الريح والمطر، لا سقف له ولا باب، إنما احتوى بداخله على غرفة صغيرة متماسكة، مغلقة خالية من النوافذ، في الأسفل في قبوه المظلم، سحبت الشاب ذا الجثّة الضخمة بصعوبة إلى القبو المظلم، استجمعت جامّ قوتي ورفعته على منضدة حجرية في منتصف الغرفة الصغيرة، نظرت إليه باستحقار وتساءات في نفسى:"أين قوتك الآن أيها العملاق الأحمق عديم الإبداع؟ ما حاجتك بالبنية الضخمة والعضلات المفتولة، إن كان شاب هزيل نحيل الجسد مثلي، يعبث بك كما يشاء؟ أمرك عجيب حقاً". أخرجت الخنجر من طيّات ملابسي، وسحبته من غمده المرصّع، وأمررته ببطء على رقبة الشاب الغليظة، بدأت أشعر بالشعور ذاته، ذات الشعور الذي شعرت به قبل سنوات، تلك المتعة الخالصة، في سلب حياة شخص ما، شخصُ له عائلة وأصدقاء، ذكريات، أهداف، تطلعات نحو المستقبل! جميعها بين قبضتي، والآن، بهذا الخنجر المرصّع، سأقطعها كلها!

بحركة عامودية سريعة، رفعت الخنجر عالياً في الهواء، وقد حددت أين سأغرزه تماماً، هناك بالضبط، حيث أشعر بالألم دائماً، في قلبه سأغرزه!

لوحت بذراعي بقوّة فأصبح الخنجر كمذنّب ساقط، وقبل أن يلامس حدّه الهدف...

"ميث! توقف!"، هتف صوت لاهث من الخلف، صوت أعرفه جيداً، نبرة لم تتغير منذ سنوات، لكنة أميزها بين آلاف اللكنات، إنها..."ليزا!". صحت وأنا ألتفت نحو مصدر الصوت، تفحصت وجهها بعيني جيداً، لقد كبرت كثيراً، لكنها ذاتها، الطفلة المزعجة المتسلطة، التي أحببتها كثيراً. كانت عيناها في تلك اللحظة، مشتعلة غضباً وقوَّة، صرخت بانفعال شديد:"ارمي الخنجر من يدك! الآن ميث!". لم أكن لأتردد لحظة فى تنفيذ ما تأمرني به، سقط الخنجر من يدي بحركة تلقائيَّة، درت بجسدي باتجاهها وانهمرت الدموع من عيني وأنا أسير نحوها مادًا ذراعي إلى الأمام، فتقدمت نحوي بدورها وضمتني بين ذراعيها بحنان. قالت وهي تجهش بالبكاء:"ميث أيها الأحمق مالذي كنت ستفعله؟!". لم أجب بشيء، كنت عاجزاً عن التفكير بإجابة منطقية لما وجدت نفسى مقدماً على فعله، فلزمت الصمت ودفنت رأسي بين

ذراعيها خجلاً. ربّتت على رأسي بهدوء كما اعتادت أن تفعل حين كنّا أطفالاً. ثمّ ساعدتني على الوقوف وقالت:

- "هو نائم أليس كذلك؟".

أجب بصوت متقطّع:

- "إنه كذلك".

قالت بحزم:

- "سيكون بخير، هيّا الآن، تعال معي".

سرت وإياها مسافة طويلة بعيداً باتجاه الجنوب، تاركين خلفنا ذاك الشاب نائماً في قبو البيت المهجور. كانت الطريق وعرة وكنت أسير بجانب ليزا كالفأر المسكين. لم أنطق بكلمة واحدة طول الطريق، بقيت صامتاً أسير بجانبها خجلاً مكفهر الوجه، إذ أنني وجدت نفسي في حالة صعبة، غير قادر على التفكير بتبرير منطقي، لم أعلم مالذي يحدث، فقد فوجئت كا فوجئت

هي، إذ وجدت نفسي حاملاً ذاك الخنجر، وعلى وشك القيام بجريمة قتل ثانية.

تقدمنا بين أشجار الصنوبر الكثيفة، حيث اختبأ كوخ صغير حسن البناء، تقدمت ليزا نحو بابه الخشبي، وأدارت القفل بمفتاح أخرجته من حقيبة جلديَّة كانت ترتديها. بقيت واقفاً متردّداً لدى الباب، حتى دعتني ليزا بصوت رقيق إلى الدخول. "تفضّل بالجلوس". قالت دون أن تنظر إلى. التفت حولي فوجدت كرسيّاً خشبياً وعليه جلست. خلعت ليزا حقيبتها الجلدية ووضعتها جانباً، وكذلك فعلت بشالها البنيّ الذي غطت به شعرها الأسود الطويل. كانت ليزا شابّة في منتصف العمر، تكبرني بأربع سنوات إن لم يخب ظنّى، طويلة قويّة البنية، مستديرة الوجه عيناها واسعتان، ارتدت حينها فستاناً من قماش أبيض خشن، وبه خصلات بلون

أخضر فستقي. عقدت شعرها وبدأت بتقطيع الخضروات وإعداد الطعام.

كنت أراقبها بصمت، وبسعادة في الوقت ذاته، لاحظت أنني بدأت أبتسم، فقالت مجدداً دون أن تنظر إلي:

- "أعلم جيداً أنك قد قتلت والدنا قبل سنوات".

ارتعش جسدي من أعلى رأسي إلى أخمص قدمي، قلت:

- "ماذا تعنين؟".

أجابت قائلة:

- "لا تدّعي الجهل يا ميث".

صعقت مرّة أخرى، يا إلهي أقدمت لتنال انتقامها؟! استطردت بعد صمت:

- "لا عليك، لن أقدم على إيذائك، أعلم جيداً السبب الذي قادك لفعل ما فعلت".

تعلم السبب جيداً؟ أي سبب؟ أنا نفسي لا أعلم لم قمت بذلك، أقى لها هي أن تعلم؟! لكنّي لم أشكّ لحظة بصدقها، لا لا، ليزا لا تنطق بما لا تعلم، ولكن كيف! انتهت ليزا من إعداد حساء بالخضروات المتوافرة لديها، ساعدتها في وضع الصحون على الطاولة، لم اكن أطيق تناول الخضروات المطهّوة، لكن هيهات هيهات أن أبدي معارضة أمام ليزا، ربما سأتحول حينها إلى وجبة الغداء!

فور انتهائنا من تناول الغداء، قلت بعد أن استجمعت كلّ ما تبقّى لديّ من قوّة:

- "ستخبرينني بالدافع الذي دفعني لفعل ما فعلت؟".

قالت:

- "تريد أن تعلّم؟".

أجبت بتردد:

- "ن٠٠نعم" -

قالت:

- "قل أخبريني من فضلك".

ظننت أنني لن أقدم على عصيان ما تأمرني به، لكنني وجدت نفسي غير قادر على تنفيذ طلبها الأخير، شعرت بشعور غريب يختلج داخل صدري. قلت بازدراء:

- "أنا أقول من فضلك؟ أنت تحلمين أيتها الشابة الخرقاء".

قامت نحوي وهي تحمل حبلاً مشدوداً التقطته من الأرض، حاولت جاهداً الدفاع عن نفسي، لكنها طرحتني أرضاً بسهولة وقيدت كلّاً من يدي وقدمي في لمح البصر. صرخت غاضباً: - "ويحك ماذا تفعلين بي؟!".

أجابت ساخرة:

"لنقل أنني أعيد تربيتك من جديد".

صحت بها:

"ومن تظنين نفسك يا هذه؟".

أجابت بحزم:

"أختك الكبرى والفرد الوحيد المتبقى من عائلتك".

نظرت إلى عينيها فعرفت أنني لن أخلّص نفسي حتى أمتثل لما تأمرني به، شعرت بالإهانة الشديدة، كيف لها أن تقوم بهذا؟! لقد جرحت كبريائي بحق، خرجت الكلمات من في يصعوبة بالغة:

- "من فضلك أخبريني، فتّي قيودي حالاً".

تربّعت أمامي والابتسامة تعلو شفتيها وقالت:

- "ليس قبل أن أخبرك بالقصّة، قصتك التي تجهلها أنت عن نفسك!".

استحوذت على انتباهي بتلك الكلمات الأخيرة، توقفت عن الانفعال وأصغيت إلى ما تقول بهدوء إذ أكبلت قائلة: "قبل عدّة سنوات، كنّا نعيش نحن عائلة السيّد مورتان في القرية

كسائر الناس، اقتصرت عائلتنا على والدى السيّد مورتان، والدتى السيَّدة آريان، أخى الصغير ميث، وأنا الأخت الكبرى ليزا. كان والدى تاجراً كثير الترحال والسفر، يعود إلى القرية مرّة كلّ عدّة شهور، أدرّت عليه تجارته بدخل لا بأس به، وتشكّلت لدى أهل القرية جميعاً صورة عن كونه رجلاً نبيلاً محترماً، فلم يكن يتواجد كثيراً بينهم، وكان يحاول دائماً إبداء الكرم وحسن الخلق. تعرَّف أبي بأمي من إحدى رحلاته التجاريَّة في إفريقيا. فقد كانت أمي ابنة أحد التجار المرموقين في المغرب العربي، ممن يبيعون الحرير والتمّور والعاج. أعجب ذاك التاجر بأبي، فقد كان أبي فطناً حاذقاً، وتاجراً ممتازاً وهو ما تميّز به. التقى أبي بأمي عدّة مرات قبل أن يتقدم لطلب يدها، فوافق التاجر ووافقت أمى طوعاً لقرار أبيها. قدموا إلى هذه القرية الصغيرة، حيث امتلك أبي أرضاً وبيتاً ورثهما عن والده المتوفى، جدّى السيد ديرارت. حملت

أمى بي بعد سنة من زواجها بأبي، وغادرنا أبي بعد ولادتى لثلاث سنوات دون أن نسمع عنه خبراً واحداً على حدّ قول أمي. وهو ما كان نادر الحدوث، فقد اعتاد أبي أن يرسل لنا الرسائل بين الحين والآخر، يطمئن على حالنا ويبعث لنا بالمال أحياناً. وبعد ثلاث سنوات، في ليلة ماطرة شديدة الظلمة، اختفى فيها نور القمر خلف السحب الرماديّة الكئيبة. قدم أبي تحت جنح الليل بشكل مفاجئ وقد بدا عليه الهم والجزع. أطالت أمى في سؤاله عمّا حدث لكنّه أبي أن يجيب، واكتفى بالإشارة إلى أنَّه لن يغادرنا لوقت طويل، بدا واضحاً أنه في مأزق ما. ولدت أنت في تلك السنة، كنت طفلاً جميلاً جباناً، صامتاً قليل البكاء. لم يبد أبي بنا اهتماماً حقيقياً، كان يجاهد نفسه أحياناً للتوقف واللعب معنا بإيعاز من أمى الحنون، لكنّه سرعان ما يسأم ويغادر مسرعاً. لم يكن يغادر

البيت إلّا قليلاً، ربما إلى البريد فحسب، وكان يرفض اصطحاب أيّ منا برفقته، ومرّت السنوات على ذاك الحال". قامت ليزا بإرخاء قيد قدمي وتابعت الحديث قائلة:

- "صحيح أننا لم نحظ باهتمام أبي وعطفه، لكن ما قدمته أمي لنا كان يفوق ما نحتاجه، من عطف، وحنان، وحب، واهتمام، إلى حرص، وعتاب، ودفئ، ووئام. إلى أن قدم اليوم الذي قلب حياتنا رأساً على عقب، اليوم الّذي كان سيحلّ علينا مهما طال الزمن. في ذاك اليوم الذي أذكره جيداً، عاد أبي ليلاً، من إحدى زياراته المتكررة للبريد، وقد أحضر معه رسالة وصلته مؤخراً ذاك الشهر. وفي غفلة منه نسى أبي الرسالة على المنضدة الخشبيَّة في غرفة النوم، فتناولتها أمى ظنّاً منها أنها رسالة قد وصلتها بالبريد من خالتي ماريان. فتحت تلك الرسالة وفجعت بالحقيقة التي احتوتها، ودهشت أيما دهشة بما قرأت في تلك الرسالة، وقفت لدى الباب منتظرة صعود والدي لتحدّثه مباشرة بالأمر. لطالما كانت أمي صريحة مستعدّة للمواجهة، لكنها كانت تجهل ما كان ينتظرها. يمكنك إكمال القصّة من هنا؟".

أكملت وقد شعرت بالضيّق:

- "صعد أبي الدرج إلى غرفته وهو يجهل تماماً أنني كنت أتبعه بنوع من عبث الأطفال، لاحظت حين وصلت حاقة الدرج الملامح الجادة على وجه أمي في تلك اللحظة، فاختبأت وأبقيت سمعي مرهفا، ورحت أسترق النظر بخفية من إحدى الزوايا المظلمة. "مورتان! ما هذا الذي أقرأه في هذه الرسالة؟!". قالت أمي مستفسرة، نظر أبي نحو الرسالة فانقلبت ملامحه. "من أبن حصلت على هذه الرسالة؟!". صرخ بغضب، "أجبني فوراً قبل أن أطلب الشرطة!". صرخت أمي بصوت أعلى نبرة وأشد حدة. "حسناً حسناً اهدئي، ليس الأمر كما تظنين، سأشرح لك حالاً". قال أبي بصوت يعجز

المرء أن يمس فيه كذباً. ما هداً من روع أمي قليلاً، قادها أي إلى الغرفة ونزل إلى المطبخ أسفل الدرج. كنت لا أزال في موقعي ذاته، أرقب ما يحصل بترقب. عاد أبي وهو يحمل صينية عليها كأس زجاجية صبّ فيها الماء، وقبل أن يدير المقبض ويلج إلى داخل الغرفة...".

تابعت ليزا حين عجزت عن الكلام:

- "جعل السم في كأس الماء وقدمه لأمي، وتظاهرت حينها بأنك تجهل الحقيقة، تبين لنا لاحقاً أن محتوى الرسالة يدل على انخراط أبي في تجارة الممنوعات، لكننا أخفينا تلك الحقيقة، قتل والدي أمي وأذاع في القرية أنها كانت وفاة طبيعية بسبب مرض بالقلب، هنالك حصل التغيير الذي تجهله أنت عن نفسك".

دام الصمت لحظة قبل أن تتابع القول:

- "بعد أن انتهت مراسم الجنازة، لاحظت أنك بدأت تتصرف على نحو غريب، وكأنك شخص مختلف عن الذي اعتدت اللهو واللعب معه، كنت تتصرف كأنك ولدت تواً، وكأنك ولدت لهدف ما، تابعت مراقبتك بخفية حتى أدركت أنك تخطط لأمر سيء، حصلت على خنجو ذي مظهر لافت، زرت العجوز بائع الأعشاب، تفقدت المنزل المهجور أعلى الجبل مراراً، أدركت أنك مقدم على أمر ما، لكتي كنت أجهله تماماً".

قاطعتها حين صمتت لتنعش ذاكرتها:

- "كنت ألج ليلاً إلى المنزل المهجور مع علمي التام بأنك كنت تتبعينني طوال الوقت، فحين قتلت أمي، أصبح حالنا كال المشردين، فوالدي لم يبد لنا اكتراثاً ولا اهتماماً مطلقاً. حين كنت أذهب إلى قبو المنزل المهجور، كنت أجلس في إحدى زواياه بصمت، أتفيّل كيف سأنفذ خطتى تماماً،

كيف سأدخل وأبي من خلفي عبر الباب الضيّق، أشير بيدي إلى حيث أخبرته أنني وجدت صندوق الذهب، ينحني بطمع ليتفحص حيث أشير، أتسلل خلفه بخطى ماكرة وأتناول الهراوة الثقيلة التي علقتها مسبقاً على الحائط، وأنهال بضربة على مؤخرة رأسه فيفقد وعيه مباشرةً، ثمّ أسكب محلول العشبة المنومّة في جوفه".

تابعت ليزا القول:

- "وهو ما حدث تماماً. رفعت والدي المغشي عليه فوق المنضدة الحجريّة، واستللت الخنجر الذي خبأته بين طيّات ملابسك، وهو الذي سرقته بأعجوبة من ذاك المجرم الذي نزل في قريتنا حينها. ما زلت أجهل كيف عرفت كونه مجرماً، أو امتلاكه لخنجر كذاك".

شرحت قائلاً:

- اتضح ذلك لي حين كنت أتجول في أرجاء القرية، حين قصدت حانة السيّد جيرارد تحديداً، حيث كان ذاك المجرم الهمجي يسأل عن غرف للمبيت، رفض السيد جيرارد أن يؤجّر غرفة من نزله المحترم، لشخص سكّير بال الثياب، تملؤ وجهه الندبات، لاحظت حينها تصرّفه الحاد الهجومي، واستلاله لخنجره لافت المظهر، فدار في خلدي أنه قد يكون عجرماً مطلوباً".

سألت ليزة في حيرة:

- "وكيف استطعت سرقة الخنجر من ذاك المجرم الخطير؟".

أجبت ببرود:

- "لم أكن أنا من فعلها...".

علَّقت ليزا قائلة:

- "شخصك الشرير فعل ذلك".

ذهلت لإدراكها للأمر، هممت بالهتاف لكنها قاطعتني فوراً وقالت:

- "نعم أعلم أنك تعاني من انفصام الشخصية، لقد كنت في السنوات الأخيرة في المغرب حيث تعيش عائلة والدتي، سافرت إلى هناك حين شعرت أن شيئاً ما قد أصابك إثر الصدمة التي مررت بها، ودرست هناك علم النفس في جامعة القرويين، لكنني طيلة سنوات دراستي، لم يسبق لي في مختلف الكتب التي قرأت، أو في أحاديث علماء النفس الآخرين، أن صادفت حالة مشابهة لحالتك، فأنت تنتقل بين شخصية وأخرى دون محددات زمنية أو أيّ عوامل أخرى، وتبقى في إحدى الشخصيتين مدداً متفاوتة غير متنظمة".

لقد تأثرت حقاً، كانت المرّة الأولى، التي يعلم أحد بما أمرّ به. كانت المرّة الأولى، الّتي أشعر بأن شخصاً يدرك المعاناة الّتي أعيش. كانت المرّة الأولى، الّتي أحسّ أن لي سكناً يمكنني

أن أركن إليه حين أشعر بالاضطراب. بدا لي أن ليزا قد لحظت الراحة في ملامحي فتابعت قولها:

- "كيف قام شخصك الشرّير بسرقة الخنجر إذاً؟".

- "لم يقبل أي من أصحاب النزل بتأجير شقة لذاك الجرم، فاضطر حينها للنوم في العراء، تبعته في رحلته للبحث عن مأوى يحميه من البرد والمطر، حتى استقر أخيراً في تجويف في الجبل أقرب لكونه كهفاً صغيراً. ترك متاعه بإهمال متكاً في حقيبة إلى صخرة قبالة الكهف الصغير أمام ناظريه، نعته شخصي الشرير بكونه أحمق عديم الابداع، وانتظرت حتى خلد إلى النوم، بل حتى غاص في نوم عميق، تسللت حينها نحو متاعه وسرقت الخنجر لافت المظهر بسهولة".

تابعت ليزا حين توقفت:

- "هذا يفسّر كل شيء، فبعد أن استللت الخنجر لافت المظهر من بين طيّات ملابسك، توقفت لدقائق تنظر إلى جسد أبي الممد، وكأنك كنت في حيرة أين ستسقط ضربتك القاتلة، وددت لو تمكنت حينها من رؤية الملامح على وجهك، لكنك كنت تقابل الناحية الأخرى لسوء حظي، كنت أراقبك بصمت من الخلف، وقد أدركت أنك ستقتل والدنا، لكنني لم أشعر بأن علي صدّك عن فعلها، ولم أكن لأستطيع حينها، فصحيح أنني كنت أكبرك بأربع سنوات، لكنك كنت تحمل في يدك خنجراً قاتلاً، وتملؤ رأسك أفكار الحقد والانتقام، فقررت الاكتفاء بالمشاهدة".

عرفت أنها تخفي عجزها عن رواية المشهد الذي سددت فيه ضربتى فقلت عوضاً عنها:

- "عرفت بعد حيرة طويلة أين سأسدد ضربتي، نظرت نحو قلب أبي باستمتاع الصائد حين يرصد فريسته. أمسكت الخنجر بكلتا يديّ ورفعتهما عالياً في الهواء، ركّزت نظري في تلك البقعة حيث القلب تماماً، وهبطت بضربة فغرز الخنجر بعمق

داخل قلب أبي. توقفت حينها دون أن أصدر أي رد فعل، توقفت لأنني لم أشعر بالرضا بعد، سحبت الخنجر ببطء، وغرزته في عينه اليمنى، لكنني لم أشعر بالرضا كذلك. سحبته مجدداً وغرزته في معدته...ما زلت لا أشعر بالرضا، لذا...".

- "أرجوك لا تكل! أعلم أنك قد قطعت أطرافه واقتلعت عينه الأخرى وجعلت جسده كدمية ممزقة! ذاك المشهد مغروز في ذاكرتي، لا أريد استحضاره أمامي الآن".

توقفت عن الكلام فاسترسلت:

- "هرعت جزعة إلى المنزل، صعدت إلى غرفتي وأغلقت الباب بالقفل واختبأت أسفل السرير، كنت خائفة هلعة مرتجفة. لقد شهدت بأم عيني، الجريمة الأبشع على الإطلاق، لم يكن التقطيع الوحشي وحده هو ما جعلني أرتعد، فقد رأيت على وجهك حين التفت نحوي، ابتسامة بعثت في نفسي شعوراً بأن ما أنظر إليه...لم يكن من جنس البشر".

- "لم أكن أنظر إليك في الحقيقة، كنت أرى وجه أمي وهي تثني عليّ لما فعلت، حتى تحوّل وجهها إلى وجه شيطان قبيح مرعب. شعرت في تلك اللحظة أنني أغرق عميقاً في الظلام". قامت ليزا بفكّ قيودي في تلك اللحظة، عدّلت من جلستي وتابعت قائلاً:

- "حاولت حينها الهرب من قبو المنزل المهجور، لكنّي منعت نفسي في محاولة للتكفير عمّا فعلت، خضت صراعاً مهلكاً بين الهروب والفرار بفعلتي، وبين البقاء لألقى ما أستحق من عقاب".

- "وقد نجحت في البقاء".

- "نعم، تكوّرت في زاوية من زوايا قبو المنزل المظلم، بجانب المنضدة الحجريّة، ودفنت رأسي بين ركبتي وغصت في عاصفة من الكاء".

- "أبلغت الشرطة في الصباح أنك وأبي لم تعودا منذ البارحة، دون الإشارة لأيّ مما رأيت الليلة الفائتة. بدأ رجال الشرطة بالبحث في أرجاء القرية، وتبعتهم بعناد رغم رفضهم للفكرة". "دخل ثلاثة من رجال الشرطة وأنت من خلفهم من باب القبو الضيّق، باستثنائك أنت...أصيب الرجال الثلاثة بالهلم!". "تقدم العريف سيمون ببطء نحو الجنّة الممزقة، في حين هرع آخر سمين نحوك متفقداً".
- "حاول الضابط السمين التحدّث إلي، إلا أنني لم أنطق بشيء".
- "أشار العريف سيمون للضابط الثالث الذي بقي واقفاً لدى الباب، بأن يبلغ القسم بما حدث، حيث قال: أبلغ الرئيس بأن السيد مورتان قد قتل، وأن المجرم لا يزال حراً طليقاً! حين سمعت أنت تلك الكلمات...".

- "وقفت بعنف وصرخت: أنا من قتل السيّد مورتان! حاول الضابط السمين التهدئة من روعي ظنّاً منه أنني أهذي من آثار الصدمة".
- "لكننك أزحت يده جانباً وتقدمت نحو باب القبو مغادراً وقلت: ستسمح لي بالهرب؟ قام حينها العريف سيمون نحوك وقال بتردد: ميث ديرارت، أنت رهن الاعتقال بتهمة القتل!".
- "قادني الشرطيان إلى القسم، حيث تمّ الزجّ بي في السجن، إلى أن ينتهي التحقيق ويتم التأكد من هويّة القاتل".
- "سرعان ما وجدت الشرطة الخنجر لافت المظهر، وأقرّ السيّد جيرارد بأنه قد رأى ذاك الخنجر مع المجرم الذي كان يعث عن نزل".

- "استمر رجال الشرطة يبحثون عن ذاك المجرم الذي أصبح موضع اشتباه لأيام، حتى وجدوا مستقرّه أخيراً في الغابة، وألقوا القبض عليه للمثول أمام القضاء".
- "لم نكن نملك داراً حقيقية للقضاء، تولت الشرطة متمثّلة برئيس القسم تلك الشؤون. مثل المجرم بالي الثياب حاد المزاج أمام رئيس القسم، ووجهت إليه التهمة بكونه مشتبهاً رئيسياً في جريمة قتل السيد مورتان".
- "دافع عن نفسه باستماتة بالطبع ، فهو وإن كان قاتلاً متمرساً، ولهذا السبب تحديداً، لن يقبل أن تتم محكامته على جريمة لم يرتكبها".
- "استدعيت حينها بصفتك المشتبه به الأول، مع الإشارة إلى تعاطف الجميع معك، ورفضهم لفكرة أن تكون أنت القاتل حقاً".

- "انتظر رجال الشرطة منّي موقفاً مغايراً عمّا سبق، لكنني بيّنت وبكل وضوح أنني قاتل السيد مورتان، وأنه لا يصح أبداً أن يتهمّ غيري لجريمة اقترفتها".

- "لم يقتنع أحد بما قلته بتاتاً، لكن اعترافك بالجريمة وتفسيرك لوجود خنجر ذاك المجرم بأنك قد سرقته في غفلة منه، حتم على رئيس القسم بالحكم عليك بالسجن، سبع سنوات مع التخفف".

- "طلبت من الضباط قلماً وقرطاساً مسطراً، وأدليت أمام رئيس القسم برغبتي في أن أسجن وحيداً في زنزانة ضيقة لا تصلها أشعّة الشمس، إذ علمت بوجود زنازن مشابهة في الطابق السفلي من قسم الشرطة، حصلت على تلك المعلومة حين جلت بجولة في قسم الشرطة رفقة العريف سيمون عندما كنت طفلاً"،

- "ساءت العلاقة بينك وبين رئيس القسم خاصّة، لما أظهرته من عنف ونكران للجميل الذي قدمه إليك. قدمت رفقة جارتنا السيّدة إيميليا لزيارتك مرّات عديدة، في تلك الزيارات جميعها، لم تتحدث إلينا، لم تستمع لما كمّا نقوله، لم تنظر إلينا حتى، أطلقت عليك حينها قول...الغريق".

- "يبدو أن لقب الغريق انتشر في القرية كالنّار في الهشيم، بتّ معروفاً في قسم الشرطة أنني الشاب الغريق، بفضلك آنستي".
- "لم أقصد وصمك بتلك الصفة، لم أكن أعي ما أقول حينها، كنت في حيرة مما أصابك، عشت أيّاماً صعبة للغاية، حتّى اتّخذت قرارى بالسفر إلى المغرب".

لاحظت فجأة أن الظلام قد حل، لم أشعر بمرور الوقت، يبدو أن الحديث قد طاب لي. قامت ليزا من على الأرض وقالت: - "حسناً إذاً، لقد تأخر الوقت، أشعر بالنعاس، سأخلد إلى النوم".

قمت متردداً نحو باب الكوخ، أدركت ليزا نيّتي، هتفت حينها:

- "يمكنك البقاء، بل عليك البقاء، لا تسمح لنفسك بالمغادرة، كما فعلت في القبو المظلم تماماً".

قلت:

- "نعم، ولكن...".

قاطعتني ليزا بإشارة من يدها وقالت:

- "لا تقلق، لن أسمح لك بأذيّتي، سأغلق غرفتي بالقفل، وأنت ستنام في هذه الغرفة".

شعرت بالراحة لكونها تدرك الخطر تماماً. تمنّت ليزا لي نوماً هنيئاً، وغادرت إلى غرفتها.

الفصل الثاني: ضفدع يستمع إلى الموسيقى.

استطعت منع نفسي من القيام بأي فعل ضار حتى الصباح، أو أنها هي لم تقدم على ذلك. لم أحظ بالقسط الكافي من النوم، لكنني استيقظت نشيطاً. أشعر بنبض ضعيف من الأمل بداخلي، الأمل في أن أعيش حياة طبيعية، أن أصعد إلى السطح نحو النور، بعيداً عن الشرّ والظلام.

حين سمحت لنفسي بالتجوال في أرجاء الكوخ، اكتشفت أنه لم يكن كوخاً صغيراً، بل هو منزل مكتمل الأركان، احتوى على مطبخ ليس بالصغير، غرفة معيشة واسعة حيث نمت ليلة أمس، علية ذات سقف مرتفع، أشبه بطابق ثان إن صح التعبير، صعدت الدرج الخشبي إلى العلية، حيث توجد غرفة ليزا، سرت في الرواق بهدوء وبخطى خفيفة كالفأر، وتوقفت أخيراً أمام الباب الأبيض لغرفة ليزا، ترددت لحظة في أن

أختبر ما إن كان مقفلاً حقّاً، لكنني شددت على يدي وأدرت المقبض النحاسي ببطء...كان مقفلاً.

لا أدرى حقًّا لم شعرت بالحزن في تلك اللحظة، شعرت بالحزن حتّى أنني بكيت، هرعت راكضاً خارج الكوخ مبتعداً بين الأشجار، كنت أركض بسرعة حافى القدمين حتّى تعثرت بصخرة فتدحرجت بقوة وارتطمت بإحدى الأشجار، استندت إلى الشجرة التي بها اصطدمت، نظرت نحو قدمي، كانت تسيل دماً، لم يكن الجرح بسيطاً. غرزت أصابعي في الأرض بغضب، أخذت أنوح بصوت مرتفع ثم تحوّل النواح إلى ضحك هستيري. "تريد أن تعيش حياة طبيعي؟!". سخرت من نفسى قائلاً. "لن يعاملك الناس بشكل طبيعي، فأنت قاتل لعين!". صرخت بحديّة. راودتني فكرة الانتحار في تلك اللحظة، كانت تراودني دائماً كل حين، لكنني أضعف وأجبن من تنفيذها، لم أكن لأستطيع فعلها، ولن أستطيع الآن. كنت

أعلم يقيناً أن ليزا ستأتي للبحث عنّي عاجلاً أم آجلاً، انتظرت، وانتظرت، وانتظرت، لكنها لم تأت!

قمت مستنداً إلى جدع الشجرة الضخم، حين شعرت أن ليزا لن تجدني، "ربما أصابها مكروه ما؟". قلت في نفسي، سرت وأنا أجر قدمي المصابة بعكس الاتجاه الذي ركضت، وبفضل ذاكرتي الممتازة، استطعت الوصول إلى الكوخ بسهولة، لم يكن الباب موصداً، تقدمت نحوه ودفعته برفق، كانت ليزا جالسة إلى الطاولة الخشبية تتناول الفطور، قالت ببرود:

- "جئت في الوقت المناسب، تلك هناك حصتك من الفطور، أين كنت؟".

نظرت نحوها مشدوهاً، لم تأت للبحث عني؟ كانت هنا تتناول الفطور طوال الوقت؟ جلست بيأس على المقعد الخشي، كنت أشعر بالجوع حقّاً، قالت ليزا بصوت صارم: - "ويحك ماذا تفعل؟ تريد إمساك الطعام بهذه الأيدي المتسخة؟ قم واغسل يديك جيداً".

مالّذي يحدث هنا؟! ألا ترى قدمي المصابة؟ ألا ترى الدموع على وجنتي؟ دمي يسيل على الأرض ألا ترى؟! أذعنت لطلبها وأنا أسير برأس مدلى إلى الأسفل، أثقلته الحيرة والتساؤلات.

غسلت يديّ جيداً، وعدت فاتخذت لنفسي مجلساً أمام الطاولة الخشبيّة، وبدأت أتناول الفطور بصمت، أتت ليزا نحوي وهي تحمل منشفة صغيرة، وبعض الضمادات، "إلي بقدمك المصابة"، قالت ليزا، أزحت بقدمي إليها، قامت ليزا بتنظيف الجرح ووضعت الضمادة عليه، وقالت حين انتهت: - "لم هربت؟"،

لم أجب بشيء، أعادت ليزا السؤال ثانية:

- "لم هربت؟ لن أعيد السؤال ثانيةً".
 - أجبت قائلاً:
- "لقد كنت تقفلين باب غرفتك حقّاً...".
 - "ظننتني كنت أبالغ؟".
 - "نعم..."،
 - "لم أكن كذلك".
 - لم أقل شيئاً، استرسلت ليزا:
- "اسمعني جيداً يا ميث، عليك التوقف عن كونك أنانياً جباناً، ظننت أنني سآتي للبحث عنك أليس كذلك؟".
 - "نعم بالفعل".
- "لا تظنّ أنني التي بحاجتك، أنت الذي بحاجتي، وعليك البقاء بجانبي، بالطبع لن تعيش حياة طبيعية، ليس بهذه السرعة. لم يمرّ يوم واحد على إحدى محاولاتك للقيام بجريمة

قتل، تريدنا أن ننام في غرفة واحدة؟ تريدني أن أقتل؟ أجبني؟!".

كانت نبرتها قاسية جادّة، لكنّ كلامها كان منطقياً تماماً، أنا بالفعل أتصرف بأنانيّة، أجبت حينها وأنا أمسح الدموع عن وجهي:

- "لا، بالطبع لا أريدك ذلك".

ابتسمت ليزا وقالت:

- "لا تتصرف بحماقة مجدداً، في المرّة القادمة لن أسمح لك العددة".

هززت رأسي موافقاً، وقفت ليزا وقد انتهت من تثبيت الضمادات على قدمي، رفعت رأسها شامخة وقالت:

- "ألن تشكرني على تضميدي لجراحك؟".

احمرّت وجنتاي وقلت:

- "ش.٠شكراً لك".

- "أضف كلمة آنستي حين تتحدث إلى النساء، بذاك تبدي احتراماً وتقديراً ولماقة".
 - "شكراً لك آنستى".
 - "أحسنت، تناول فطورك واستعد فلديك عمل لتقوم به".
 - "نعم آنستي".

يبدو أنني أسأت استخدام كلمة آنستي حينها، أحتاج إلى مزيد من الوقت لتعلّم آداب الحديث، تابعت تناول الفطور بصمت، بينما قامت ليزا ببعض الأعمال المنزلية، يا لي من شخص عمي البصر، أتى لي أن أغفل التغيّر المهول الذي حصل؟ كنت شخصاً بلا مأوى ولا أصدقاء، قاتل مجرم سيء الخلق، والآن أنا هنا، في منزل واسع، أتناول طعاماً لذيذاً، أشعر بالدفء، أشعر بالطمأنينة، ولدي ليزا بجانبي، فيم كنت أفكر حين حاولت الهرب بعيداً، قيامي بذاك الفعل، أشبه

برفضي لجميع النعم التي عليّ أنعمت، وكأنني أجحد صنيع ليزا تجاهي، وأدير ظهري لمستقبل ممكن، مستقبل لحياة طبيعية.

انتهيت من تناول فطوري ويا ليتني لم أفعل. "يبدو أنك انتهيت، هيّا هيّا تعال، ستقوم بتعليق ذاك المصباح الزيتي هناك في البقعة المظلمة"، قالت ليزا وهي تشير إلى المصباح ثم إلى البقعة المظلمة تباعاً. لم أكن أحب الأعمال الحرفيّة إطلاقاً، لكن كان لابدّ من تنفيذ ما تقوله، تناولت المصباح الزيتي الصغير، وحملته إلى البقعة المظلمة حيث نصبت ليزا لي سلماً صعدت عليه لأعلق المصباح، قالت ليزا:

- "إليُّ بالمصباح ناولني إياه".

قلت وأنا أناولها المصباح الزيتي الصغير:

- "تفضلي آنستي".

أحاطته ببضع نظرات فاحصة، وقالت:

- "إنه من النوع الذي يسهل تعليقه، ادن برأسك وانظر هنا". دنوت برأسي نحوها مستمعاً فتابعت:
- "أترى هذه الفتحات، إنها حيث تثبّت المسامير اللولبية، ستطبق القرص الدائري المثبّت في نهاية السلسة المتدليّة من السقف فوقك، هنا على المصباح، ثمّ تجعل المسامير اللولبيّة خلاله والمصباح معاً، سهلً للغاية".

تناولت المصباح وصعدت السلّم مجدداً، تدلّت من السقف السلسلة التي يفترض أن تكون حامل المصباح، أخذت أنظر إليها وأستذكر ما قالته ليزا قبل لحظة...أين سأضع المسامير اللوليّة؟

غادرتني ليزا لعدّة دقائق، وحين عادت وجدتني في حيرة على حالتي الأولى، قالت بضجر:

- "عليك شد المسمار لولبي الشكل باستعمال المفك ذي الرأس المدبّب ذاك، هيّا لا يستغرق هذا العمل دقيقة عادةً!".

قلت في نفسي حين عجزت عن قولها علانيّة:

- "تبدو الفكرة بسيطة فعلاً، لكنها مرّتي الأولى ألا تعلمين ذلك!".

حاولت مراراً وتكراراً، لكن المسامير ما انفكت تسقط مني على الأرض حيناً، وترفض الدوران في محلها حيناً آخر، "انزل"، قالت ليزا وهي تتقدم نحوي بهدو، أذعنت بصمت، صعدت السلّم ببطء، وأمسكت بالمصباح الزيتي في يد، وأعطيتها المفكّ في يدها الأخرى، وصنعت بيدي سلّة حيث حفظت المسامير اللولبيّة، قامت ليزا بشدّ المسامير في مكانها دون مجهود يذكر، كان المفكّ يدور في يدها كالسّحر، وكأنها منحت قدرة حرمت أنا منها!

توالت التكليفات الّتي وجّهت إلي من قبل ليزا بشكل مهول، توزعت بين أعمال حرفيّة أخرى، وبعض الأعمال الزراعية في

الحقل خلف الكوخ، وحصلت كذلك على نصيبي من الأعمال المنزليَّة. بقى الأمر على حاله لثلاثة أيام متتالية، لم نكن نتحدث إلا نادراً، في مواضيع سطحيّة معظم الوقت. ما خلصت به من الأيام تلك، هو أننى أفتقر إلى المهارات الاجتماعية الأساسية، بل قد وجدت نفسي عاجزاً عن فهم بعض التعابير ونبرات الصوت الّتي نوعت ليزا في استخدامها في مواضع معيّنة. وحين كانت تلتفت إلىّ لترى التعبير على وجهى تعقيباً على ما قالت، تضل ملامحي طريقها في محاولة يائسة لرسم تعبير مناسب. أشعرني عجزي في هذا السياق بالضيق، صاحبه انحدار حاد في المزاج، وبدأت الأفكار المتشائمة تحوم حول رأسي باحثةً عن ثغرة للدخول.

صباح اليوم التالي، استيقظت مبكراً ساعة الفجر، لم أخطط للاستيقاظ الليلة الماضية في هذه الساعة المبكرة، حدث ذلك

بالصدفة، ولم أجد نفسي راغباً في النوم مجدداً، فخرجت إلى الحقل حيث كانت ليزا تعتني بمحصول البطاطا، لم يكن يرقى لأن نطلق عليه محصولاً لكنها أصرت على تسميته ب "محصول البطاطا".

- "ماذا تفعلين؟" قلت وأنا اتقدم من خلفها.
- "أشجع البطاطا، انظر هناك، بعض السيقان الصغيرة بدأت بالظهور". قالت والبسمة تزيّن شفتيها.
 - "تشجعينها؟ البطاطا؟ حقاً تقولين؟". قلت متعجباً.
 - "نعم!". أجابت ببساطة.
 - "أنا لا أفهم". قلت في حيرة.
 - "أظنني بتّ أعلم ما ينقصك". علّقت قائلة.
 - "ماذا تقصدين؟". قلت مستفسراً.
 - "أعنى ما ينقصك لتكون طبيعياً". أجابت قائلة.
 - "وهو؟"، قلت،

- "الشعور بالعاطفة". قالت.
- "العاطفة؟ تعنين الحزن والسعادة والغضب؟ لكنني أمتلك مثل هذه المشاعر". قلت أدافع عن نفسى.
- "لا لا، لم تكن الأحاسيس هي ما أقصده، لا أعلم كيف أصف الأمراً وصفًا واضحاً". نفت قائلة.
- "أيمكنك أن تذكري حالة تظهر فيها هذه العاطفة التي تتحدثين عنها؟ متى تشعرين بها؟". أشرت عليها قائلاً.
- "ممم...إنه أشبه بذاك الشعور بالتأثر حين تستمع إلى الموسيقي". قالت.
- لم أفهم، لم أشعر بأنني قريب من الفهم حتى، كان ما تتحدث عنه خارج تصوري تماماً. الموسيقى؟ أحسب أنني أعرف ما تكون تلك الموسيقى.
- "هل سبق لك أن استمعت للموسيقى؟". قالت وهي تنتقل إلى بقعة أخرى.

- "لست متأكداً، ربما ناي العم هانكس حين كنت طفلاً". أجبت.

هبّت واقفة بتململ وقالت:

- "لم يكن العم هانكس بارعاً، كان الصوت الصادر عن عزفه للناي العتيق نشازاً لا يبعث في النفس أي شعور التأثر".

علّقت قائلاً:

- "إذاً لم يسبق لي أن استمعت للموسيقي".

انتهى الحوار في تلك اللحظة، إذ غادرت ليزا إلى غرفتها وكأنما تطلب العزلة للتفكير في أمر مهم. انطلقت للتجوال في متاهة لا نهائية من الأشجار، في الغابة الكثيفة بمحيط مئة متر حول الكوخ. تناولت عصا خشبية مدببة الرأس ورحت اشق طريقي بين أوراق الأشجار الكبيرة. سمعت حينها صوتاً عذباً قادماً من إحدى الأشجار، أخفضت قامتي وتقدمت ببطئ

لأبصر مصدر الصوت، لمحته يتمايل فوق أحد الأغصان، طائر ذو ريش أسود منمق يتوسطه ريش أبيض في صدره منعه نوعاً من الوقار الممل، غرّد الطائر لحناً بعث في نفسي شعوراً أجهل ماهيته، شعرت بأن صوته يتغلغل عبر أذني فينبض دفئاً في قلبي، لمست في تغريده لغة تخاطب روحي يعجز عقلي عن ترجمتها، خطر لي حينها، الحوار الذي خضته وليزا قبل ساعة مضت، تراجعت بحماسة بعد أن همست للطائر أن يلزم مكانه، هرعت نحو الكوخ بحماسة، دخلت عبر الباب وصعدت الدرج إلى غرفة ليزا، طرقت الباب بشكل جنوني وقلت:

- "ليزا! ليزا!".

فتحت ليزا الباب وعلى وجهها علامات الجزع، جذبت يدها ونزلت الدرج مسرعاً وهي من ورائي عاجزة عن إدراك ما يحصل. أخبرتها بأن تلتزم وصمت وتسير بهدوء قبيل اقترابنا من البقعة التي تركت الطائرة عندها. أخفضت قامتي وقامت ليزا بالمثل من تلقاء نفسها. لحسن حظّي كان الطائر لا يزال في مكانه على الغصن، وكأنما أدرك حاجتي إلى مساعدته. انتظرنا لحظة حتى بدأ الطائر يعزف لحنه المميز، أنصت وليزا وقد تملكنا السكون لدقيقة كاملة، غادرنا الطائر حين انتهى من تلاوة تغريداته الّتي تبعث في النفس الهدوء والراحة. تملكتني السعادة والنفت إلى ليزا قائلاً:

- "هذه هي الموسيقى أليس كذلك؟! أظنني شعرت بتلك العاطفة، أقسم لك لقد شعرت بها، شعور بالدفئ تغلغل في جسدي وكأنما يخاطب روحي!".

ابتسمت ليزا وقد اغرورقت عيناها بالدموع وضمتني بين ذراعيها وقالت:

- "نعم هذه هي الموسيقى! هذه هي العاطفة الّتي حدثتك عنها يا ميث!". لا أملك القدرة لأصف كم بدا العالم لي جميلاً في تلك اللحظة، تشكّلت لدي ثقة حديديّة بذاتي، وشعور بالأمل يخبرني أنني أستطيع فعلها، أنه يمكنني التكفير عن الذنوب التي اقترفتها وفتح صفحة جديدة لحياة طاهرة، فإن أشدّ ما يميل إليه المرء بطبيعته الفطرية، هو أن يعيش حياة مستقيمة. عدت برفقة ليزا إلى الكوخ، أعدت ليزا الفطور وبينما كنا نتناوله قالت: - "سأذهب اليوم إلى القرية".

قلت ىتردد:

- "القرية؟ قريتنا؟".

اطمأننت فوراً حين قالت:

- "بل قرية أخرى، إنها تبعد مسير ساعتين من هنا، لن أتأخر، سأشترى بعض الحاجيات".

اقترحت قائلاً:

- "يمكنني القدوم؟".

ردّت بحزم:

- "كلّا، لا يمكنك".

تمتمت خائباً:

- "نعم" -

حين انتهينا من تناول الفطور، صعدت ليزا إلى الطابق العلوي وأحضرت قلماً وورقاً مسطراً وعادت بسرعة، ناولتني الورقة والقلم وقالت:

- "تجيد الكتابة إليس كذلك؟".

- "بالطبع".

- "دوّن ما أملي عليك".

- "أمرك آنستي".

اتكأت على طاولة الطعام، وانتظرت تعليمات ليزا، لبثت دقيقة ثمّ قالت:

- "زبیب أحمر- قرنفل - خبز طازج - لحم مملح - کستناء ذهبیة - فاصولیاء - ملح - عسل - وأخیراً ك".

- "९५।" -

- "إنها مفاجأة".

شعرت بالفضول حول ماهية تلك ال"ك"، لكنها رفضت تزويدي بمزيد من المعلومات، ناولتها قائمة الحاجيات، وصعدت إلى غرفتها لتتجهز للخروج، خطر لي أنني سأبقى وحيداً لما يزيد على أربع ساعات على أقل تقدير، تساءلت ما الذي أستطيع فعله في هذه المدّة، لم أكن لأشعر بالملل بالتأكيد، فقد قضيت سبع سنوات على ذاك الحال، لكنني أشعر أن الأم مختلف قليلاً هذه المرّة.

وقفت لدى الباب أراقب ليزا الّتي همّت بالمغادرة. "إيّاك أن تغادر الكوخ، سأقتلك إن فعلت". قالت وهي ترمقني بنظرة

جادّة. "أعدك أنني لن أبرح الكوخ مهما حصل". قلت مؤكداً. رحت أجول في أرجاء الكوخ، باحثاً عن شيء أمضى الساعات القادمة في فعله، لمحت العديد من الأشياء المثيرة، بعض الكتب (أظنها تتحدث عن علم النفس في معظمها)، قوس وسهام، دمي طفوليَّة، جزء تالف من ساعة ميكانيكيَّة، وبين تلك الأشياء العشوائية، لمحت من بعيد هيكلاً خشبياً مغبّراً، اقتربت منه ببطء وأزلت ما يحيطه من مبعثرات. جذبت الهيكل الخشي نحوي ورحت أمسح سطحه بطرف قميصي الأبيض غير عابئ بما سيلحق به من سواد. حدّقت في الهيكل الخشبي للحظات حتّى أدركت هويّته، اتسعت مقلتاي وهتفت من فرط الدهشة:"جرامافون!". كان جرامافوناً كالذّي امتلكه العم توم، والذي حلمت بالحصول عليه حينما كنت طفلاً، جلت بناظري باحثاً عن الاسطوانات المعدنيَّة الصغيرة، وبعد قليل من البحث بين

كومة الأغراض وجدت اسطوانة معدنية صغيرة، وهي قرص ذو أخدود حلزوني دقيق، ملفوف داخل رقيق من الصفيح، كانت تلك مرتي الأولى الّتي أحاول فيها تشغيل الجرامافون، أجلست الاسطوانة فوق المحور الدوّار، وأنزلت الإبرة الملحقة بحاجز غشائي لقرص هزاز، وحين قمت بفتل المفتاح من على الجانب، بدأت الاسطوانة بالدوران فوق المحور، فسببت النقرات على الرقيقة في اهتزاز الإبرة والحاجز الغشائي، ما أصدر حينها صوتاً خافتاً يشبه لحناً حزيناً.

كان للموسيقى الّتي أصدرها الجرامافون وقع مختلفً في أذني عن ذاك الذي شعرت به حين تغريد العصفور أسود الريش، فبينما كان تغريد العصفور يقتصر على الصفير، تفاوتت حدّة ودرجات اللحن الموسيقي في الجرامافون، بانتظام مدروس حكيم، ترجمه العقل بشتّى الصور والذكريات.

على حالتي تلك، جالساً أستمع إلى اللحن الساحر، بقيت حتى عودة ليزا من رحلتها إلى القرية. انتشلتني الطرقات المستمرة على الباب من انغماسي في سيّال الأفكار بين الماضي والحاضر والمستقبل. قالت ليزا حين فتحت لها الباب:

- "ما بك قد أطلت، ساعدني في حمل الحاجيات إلى الداخل".

هرعت إلى مساعدتها في نقل الحاجيات إلى داخل الكوخ، سألت مستفسراً:

- "أحضرت ال"ك" تلك؟".

- "ربطته إلى جانب الكوخ هناك".

- "ربطته؟".

- "اذهب والق نظرة".

حملت ما استطعت من الأكياس القماشية إلى داخل الكوخ، وخرجت مسرعاً، درت حول الكوخ وتوقفت حين رأيت كلباً ذهبي الشعر، ذو معطف لامع خشن مموج، وآذان طويلة وذيل منفوش، جلس هناك يلهث باستمرار، ويبادلني النظرات وهو مربوط إلى مسمار ثبت في جدار الكوخ الجانبي، لقد سبق أن اقتنينا جرواً صغيراً حين كنا نعيش في القرية، لكن أبي قام ببيعه حين استقر للعيش معنا،

تقدمت نحو الكلب الذهبي ودنوت منه حتى أربت على رأسه، فلم يبد أي صد وراح يلعق يدي ببشاشة. "إنه من فصيلة المسترد الذهبي". قالت ليزا وهي تتقدم من خلفي، "المسترد الذهبي؟ إنه اسم مضحك حقّاً". قلت وأصدرت قهقهة خافتة، تربّعت ليزا بجانب الكلب واستطردت قائلة بينما تربت على رأسه:

- "إنها سلالة كلاب ودودة ومخلصة، كما أنها ذكيّة وتتمتع بالصبر والطيبة، ما يجعلها كلاباً رائعة للتدريب".
 - "يبدو لى كلباً ودوداً".
 - "تريد أخذه في جولة؟".
 - "يمكنني ذلك؟".
- "بالطبع يمكنك، هيّا هيّا، خذ الكلب في جولة بينما أجهز طعام الغداء".
 - "أمرك آنستى".

قمت نحو الكلب وانتزعت الحبل من على المسمار على الجدار، سرت ببطء مشيراً إلى الكلب كي يتبعني بدوره، وبالفعل سار الكلب مستمتعاً بجانبي. وقبل أن أبتعد كثيراً هتفت ليزا قائلة:

- "ألن تمنحه اسماً؟".
 - قلت مستغرباً:

- "من؟ الكلب؟!".

أجابت ببساطة:

- "نعم الكلب بالطبع".

قلت وأنا أسير مبتعداً:

- "سأترك هذه المهمّة لك آنستى".

تجوّلت برفقة الكلب في الغابة حول الكوخ، كانت لديه أرجل قوية وعضلية، وصدر عريض مفتول، وكان مطيعاً إلى حدّ كبير، ومرحاً في الوقت ذاته، فهو يقف ويشتم كل ما في طريقه، يلاحق السناجب الصغيرة والطيور فوق الأشجار وبين الصخور، وينبح من حين إلى آخر دونما داع حقيقي للنباح، وفور انتهاء جولتنا المملة عدت والكلب إلى الكوخ، أعدت ربط وثاقه إلى جدار الكوخ الجانبي، وولجت إلى داخل الكوخ بمعدة فارغة.

- "يالها من جولة سريعة، سيجهز الغداء خلال دقائق". قالت ليزا حين دخولي.
- "أنا أتضور جوعاً، أرجو ألّا يكون حساء الخضروات مجدداً". قلت متذمراً.
 - "وما به حساء الخضروات؟!". علَّقت ليزا بعصبيَّة.
 - "لا شيء! لا شيء إطلاقاً!". تداركت الأمر قائلاً.
- ساد الصمت لدقيقة أو اثنتين، تبادرت صورة الجرامافون إلى ذهني فقلت:
- "لم تخبريني أنك تملكين جرامافوناً كالّذي امتلكه العمّ توم".
 - "آه لقد نسيت أمره تماماً، لا أظنّه يعمل حتى".
 - "بل يعمل جيداً، إنما كان مغبراً متسخاً".
 - "حقاً؟ قمت بتشغيله في غيابي؟".
 - "نعم، لقد فعلت".

- "جيّدٌ جداً، يبدو أنك وجدت ما تمضي به الوقت في

غيابي".

- "نعم، أظن ذلك".

الفصل الثالث: ليس سهلاً أن تهزم الشيطان!

بعد أسبوع من انضمام الكلب "وولي" للعيش معنا، (وولي هو الاسم الذي أطلقته ليزا على الكلب الذهبي). استيقظت فجراً بطبيعة مختلفة، ونظرة نصف مغلقة. قامت ليزا خلال الأسبوع الماضي بتدريب الكلب وولي على بعض الحركات، كالتقاط العصا والمصافحة والمزيد من الحركات البسيطة. تمتع الكلب وولي بطبيعة مرحة لعوبة، وحرص مستميت على الإرضاء، فسرعان ما أحبته ليزا وتعلقت به، وأولته جل اهتمام وعطفها.

تسللت أعلى الدرج إلى العليّة، دون أن يصدر لخطاي أي صوت. حظيت خلال الأسبوع الفائت بنصيب من حنان الكلب وولي كذلك، ولعبت وإياه لعبة التقاط القرص يومياً منذ أن قامت ليزا بتدريبه، ألصقت أذني إلى الباب الخشبي

لغرفة ليزا المغلقة، وأنصت بسمع مرهف أدركت به صوت أنفاسها النائمة، وحين تأكدت من أنها تغطُّ في نوم عميق، نزلت الدرج إلى الطابق السفلي واتجهت إلى كومة الأشياء المبعثرة حيث وجدت الجرامافون أول مرّة. تناولت القوس والسهم، وخرجت إلى حيث ينام وولى. أطلقت سراحه وقذفت بعصاً التقطتها من على الأرض بعيداً في الظلام، لم يبد لى أنه قد أدرك ما أحثّه على فعله، فأعدت الكرة مراراً حتى أدرك أنني أدعوه إلى اللعب. فانطلق بعد الرمية الخامسة خلف العصا وحينها...أطلقت نحوه سهماً غادراً ما كان له أن يتوقع قدومه، فاخترق أحشائه وألقاه أرضاً قبل أن يصل إلى العصاء

نازع الكلب المسكين الموت بألم حتى لفظ أنفاسه الأخيرة، وهو ينظر إلي بعينان مستغيثتان، تفقدان بريق الحياة شيئاً فشيئاً، وسرعان ما غادرت روحه جسده، وفارق الحياة.

ابتسمت في رضا وأنا أطالع جثته، عدت إلى الكوخ وأعدت القوس إلى مكانه. ثمّ عدت فتمددت على فراشي، وأغلقت عيني بينما أبقيت سمعي مرهفاً. انتظرت ساكناً، لساعة أو اثنتين حتى استيقظت ليزا وراحت بطبيعة الحال، لتتفقد الكلب الذهبي وولى.

استرقت النظر من النافذة الزجاجية، بدت ملامح الصدمة جلية على وجهها وهي تطالع جثة الكلب المسكين، حنت قامتها ببطء وبكل قسوة انتزعت السهم المدبب من أحشائه،

واتجهت نحو دلو خشبي ملي، بالمياه، حيث غسلت السهم جيداً ثمّ عادت إلى الكوخ.

- "هذا أحد سهامي...". قالت ليزا وهي تشهق بين الكلمة والأخرى.
 - "ماذا تعنين؟". قلت ببرود.
 - "هذا أحد سهامي!!". صرخت بالكلمات ذاتها.
 - لم أنطق بشيء فاستطردت:
- "أطلي حافة سهامي بلون أحمر لتمييزها حين أخرج للصيد". ذاك تفصيل عجزت عن ملاحظته في ظلام الفجر الدامس. أصبحت في تلك اللحظة على أتمّ الاستعداد لهجوم عنيف قد أتلقاه، لكنني فوجئت بأنها تهالكت على الأرض باكية بيأس وهي تضرب الأرض بقبضتيها وتصرخ بصوت مهتز:

- "اترك أخي وشأنه!! غادر روحه أيها القاتل عديم الإنسانيّة!!".

بدا أن لذلك المشهد بالغ الأثر في نفسي، فقد شعرت بوخز مؤلم في الناحية اليسرى من صدري وأجبرت رغماً عني على إغلاق عيني والجثو على ركبتي.

انهمرت الدموع على وجنتيّ كالمطر، شعرت بثقل هائل في رأسي واعتصرت صدري بقوّة بقبضتي. قلت وأنا أبكي بحرقة ويلتهب صدري لحال ليزا ونواحها:

- "أنا...أنا لم أستطع منع نفسي!! أنا آسف حقًّا...ليزا!!".

صرختُ بيأسٍ ونيَّة صادقة:

- "أريد أن أموت!! سأقتل نفسي وأخلصك من هذا الألم!!". صرخت ليزا بقوّة لصراخي: - "توقف عن التصرّف بأنانيّة!! لا أريد أن أكون وحيدة بعد الآن!! أما آن لك أن تفهم؟!".

قلت بيأس:

- "لا أستطيع!! لن أتخلّص من هذه الطبيعة القاتلة...هذا مستحيل!!".

صفعتني ليزا بقوّة وقالت بعصبيّة:

- "ستفعل وإن بدا ذلك مستحيلاً!! سنستمر في المحاولة حتى يلقى أحدنا حتفه!! هل تفهم ما أقوله؟!!".

خيّم صمت قاتل بعد الصفعة التي تلقيتها، تجرعت حينها كؤوس اليأس والندم. أدركت حينها أمرين في غاية الأهمية، الأمر الأول؛ هو أن ليزا المسكينة، لا تملك تصوراً واضحاً عما عليها فعله لمساعدتي، إنها تتحلى بعزيمة فولاذيّة، ورغبة حقيقيّة صادقة في أن تقدم لي المساعدة، لكنها لا تملك منهجيّة معينة كي تتبعها. والأمر الثاني وهو الأهم؛ هو أنني إنسان أحمق

مهمل، ضعيف عديم الإرادة، أسأل نفسي مستنكراً وأقول:"ماللذي فعلته كي تتغير؟ أي جهد بذلته لتحسن من نفسك؟ أنت لم تفكّر في الأمر حتّى!".

تبيّن لي أنه ليس من السهل أن تهزم الشيطان بداخلك، لن يحدث ذلك دون جهد وعمل، إنني لم أقاومه حتّى حين همّ بالذهاب بحياة ذاك الشاب، لم أبد أي صد، لم ألمه، لم أشعر بالذنب والأسى، ربما...ربما قد تطبعت بطباعه فعلاً. يبدو الأمر لي مستحيلاً، لا يمكن لعقلي الصغير، التفكير في أيّ سبيل ممكن للتخلص من هذه الطباع، وهذه الشخصية القذرة، تذكرني حالتي البائسة، بوصيّة أمي لي حينما كنت صغيراً؛ كانت تردد عليّ مراراً ألّا أرافق رفاق السوء، أنّى لي أن آخذ بنصيحتها الآن ورفيق السوء هو نفسي، ذاتي الّتي بين جني، أشعر بالضيق.

غادرت ليزا إلى غرفتها بوجه شاحب مكفهر حزين، خرجت في حيرة من أمري إلى حيث تستلقي جنَّة الكلب وولي. وقفت مركزاً عيني تجاهه بيأس، شعرت أنّ ظلاماً ثقيلاً يصعد في رئتي فيمنعني من التنفس، إنه العجز.

بقيت مستيقظاً حتى عجزت عن حمل جفناي، فهبطت كدبّ أشهب يهم للدخول في سبات، على أرضية الكوخ الباردة، استيقظت عصر اليوم التالي أشعر بدوار شديد، وكأن العالم يذوب من حولي، بصعوبة جررت نفسي باحثاً عن ليزا وأنا أفقد الطاقة شيئاً فشيئاً، غير واثني إن كنت سأكل الخطوة التالية، أبصرت ليزا تهرع نحوي هلعة للحظة قبل أن أفقد الوعي، أصبت بالحي، لزمت الفراش لثلاثة أيام، لم تتخطى ليزا

حادثة الكلب بعد، ما تزال تشعر بالحزن، وبدت لي مؤخراً...حائرة مستسلمة.

لسوء حظّي لم تقض عليّ الجّي، وسرعان ما استعدت عافيتي بعد انقضاء الأيام الثلاثة، فقد قدمت ليزا لي الطعام والشراب والدواء، ما ساعدني على التحسّن، لكنها ما كانت تفعل ذلك من دافع الحرص والشفقة، وكأنما تنفذ أمراً عسكماً.

بينما كنت مستلقياً تحت ظلّ إحدى شجرات الغابة أمام الكوخ، رأيت ليزا تسير نحوي وهي تحمل بيدها سلّة قماشيّة مرقّطة.

"ستأتي؟". قالت ليزا دون أن تنظر إلي.

"إل..إلى أين؟". قلت متردداً.

"نزهة أعلى الجبل". أجابت.

"ن..نعم؟". قلت بمزيد من التردد.

"أسرع إذن، لن أنتظرك إن تأخرت". قالت ليزا وقد اتّكأت إلى الشجرة الّتي أستلقيت تحتها.

قمت بالفعل نحو الكوخ إذ خطر لي أنَّ عليَّ التجهز لهذه النزهة المفاجئة...كيف اتجهز للنزهة؟ ملأت قربة عتيقة بالماء، وعدت إلى ليزا حيث سرنا معاً عبر الغابة الكثيفة إلى جرف مطل على مشهد غروب ساحر. بسطت ليزا كناناً مطرّزاً على العشب الأخضر القصير، وأخرجت من سلَّمَا القماشيَّة ذات اللون البنَّى الفاتح، مرطباناً من المربي، خبز محمص، قهوة، وبعض الأواني النحاسية. قامت ليزا بإعداد الشطائر، بينما راقبت الغروب من على طرف الجرف العالى. نادتني ليزا لتناول الشطائر بصحبة كوب من القهوة، جلست بجانبها على البساط، ومررت لي شطيرة مربّي التوت وكوب قهوة أبيض مزخرف. قالت ليزا:

- "النسيم في غاية الروعة".
- "يمنحك شعوراً بالحريّة؟".
- "ياله من اختيار رائع للكلمات!".
 - "ما من شيء يستحق؟".
- "يبدو أنك مررت بحالة مشابهة...".
 - " في ليلة ظلماء بائسة...".
 - "كيف حدث ذلك؟"،
 - "لا أعلم...لكنه كان ملهماً!".
 - "أشبه ب...".
 - "أشبه برقصة مع الذات".
 - "لهذه الكلمات صدى رنّان".
 - "إنها تصف الأمر وصفاً دقيقاً".
 - "بم شعرت؟".
 - "بالحريّة...الحريّة المطلقة".
 - "وضّح أكثر".
 - "شعرت أنه ما من شيءٍ يستحق".
 - "وبذا شعرت بالحريّة؟".
 - "بالضبط".

أطبق صمت مريح بعد تلك المحادثة الفلسفية شديدة التعقيد. غفوت رغماً عني كرضيع شبع، لساعة او أكثر قليلاً. وحين استيقظت رأيت ليزا تقف عند حافة الجرف متأملة في رداء السماء المرصع بالنجوم. قمت ببطء وسرت كجيفة ممسوسة، حتى توقفت خلفها تماماً.

"ستغمرك الشجاعة حين تسأم".

قمت ببطع وسرت كجيفة ممسوسة، حتّى توقفت خلف ليزا تماماً. تحرّكت يدي تنازعها رغبتين متضادتين، لكنهما ليستا متساويتين.

ببطء وثبات دفعت ليزا الغافلة من على الجرف، بدا أنها قد شعرت بقدوم تلك الدفعة الرقيقة الثابتة لحظة قبل وصولها، ما جعلها تلتفت بحركة دفاعيّة عاجزة. سقطت ليزا من على الجرف إلّا أنها أمسكت بيدي بأعجوبة ما جعلها تتأرجح في الهواء.

"ميث!! استيقظ أرجوك!!!!". صرخت ليزا بصوت حاد ممزوج برنّة من بكاءٍ طفوليّ مستعطف.

سمعت لكلماتها الراجية، صدىً لنبض قلبها المضطرب، ولمحت في عينيها المثقلتين بالدموع جزعاً مهولاً من الموت، وشعرت في ذات الوقت عبر دفء كفّيها، باستغاثة تتغلغل في عروقي متّجهةً بيأسٍ إلى قلبي لتوقظني من سكرتي وتعيدني إلى رشدى.

سحبت ليزا الّتي فقدت الوعي ببطء حتى أبعدتها عن حافّة الجرف، وبقوّة أجهل مصدرها حملتها وسرت عائداً إلى الكوخ، دفعت الباب الخشبي بقدمي وصعدت الدرج إلى

غرفتها في الطابق العلوي، حيث وضعتها في فراشها. سكبت الماء في كأس زجاجي ووضعته بجانبها، وعلى مكتبها الصغير، كتبت رسالة الوداع.

الفصل الرابع: ضفدع يعاني من هوس مفرط.

"لعلُّك ستدركين يوماً أن ما قمت به لم يكن أنانيَّة صلدة. ربما أكون أنانياً فعلاً، لكنّني أرى نفسي صادقاً مخلصاً. ستقولين هذا ضرب من الغرور والكبرياء...ربما هو كذلك. أدركت مؤخراً ما معنى أن تكون غريقاً، أن تكون غريقاً يعني أن تتناقض أفعال جوارحك مع ما تؤمن به في قلبك، يبعث ذلك في روحك شعوراً بالاختناق القاتل. لعلُّ الطريق وعر ومضن نحو السطح بعيدًا عن ظلام القاع، لكن أحسب أنّ بإمكاني قطعه ما دام الطريق الصحيح. ربما لن تتسنى لي فرصة العودة، لذا إن واجهتى صعوبة في المضى قدماً، تذكري أننى الأناني الشرير الذي رحل دون اكتراث. تبيّن لى أننى عشت حياتي باحثاً عن التقدير، من الناس من حولي، ومن ذاتي. سأبكى حين أقرأ هذه الكلمات، أتمنى أن تظلّى بخير، وأن تحظى بالسعادة. أرجو أن تسامحيني، وأن تعفى عن كلّ ما بدر منّى من سوء. تذكّري دوماً أنك ستبقين محفورة في ذاكرتي إلى الأبد".

وداعاً يا ليزا. ميث.

غادرت الكوخ بعد أن تركت تلك الرسالة المطوية ظاهرة أسفل كتاب على المكتب الصغير، قمت بطيها وقد راودتني فكرة كسب الوقت، الوقت الذي ستسغرقه ليزا في فتح طيّات الرسالة...بضع ثوانٍ ربما، يا الهي فيم كنت أفكّر.

قصدت القرية تلمع في ذهني فكرة الاعتذار للشاب الضخم، وقد كنت آمل، بناءً على تفكير منطقي، أنه لن يتم اعتقالي، فأنا لم أرتكب أي جريمة، أليس كذلك؟

دخلت القرية من الطريق الجبلي خلف الكوخ الذي كنت أسكنه، ما يزال بيت الشاب بعيداً إلى حدّ ما، كم مضى من الوقت يا ترى؟ أسبوعان؟ لحت بعض النظرات الغريبة على وجوه من رأيت من أهل القرية، تابعت السير بحذر إلى بيت الشاب الضخم، أتلفّت حولي في ريبة بين الفينة والأخرى،

وعندما مررت بمحاذاة إحدى الحانات العتيقة، رأيت العريف سيمون وهو يحتسي كوباً من شراب ما أثناء دوريته وحيداً. وقفت في مكاني بهدوء حين رأيت في عينيه نظرة تأمرني بالتوقف، لم تكن نظرة عدائية كلا، إنما كانت نظرة فضولية مستفسرة. سار نحوي وهو يدير ما تبقى من المشروب (وأحسبه عصير التفاح) في قاع الكأس الزجاجي.

- "ماذا تفعل هنا؟". قال حين وقف بجانبي.
 - "أُعليِّ المغادرة؟". قلت بصوت منخفض.
- "إن لم تكن مشتاقاً لزنزانتك". أجاب وهو ينظر إلى داخل الكأس.
 - "لم أرتكب أي جريمة". قلت وقد هممت بالمغادرة.
 - "كنت على وشك فعلها". قال بحزم.

التفت بعصبيّة وقلت:

- "لا يمكنك محاسبتي على جريمة لم أقم بها، وما من شهودٍ كذلك، علامَ تستند في اتهامك لي حضرة الضابط؟!".

ضحك بسخرية وقال:

- "لم أوجّه لك أي اتهام يا عزيزي".

نلت:

- "لم علىّ المغادرة اذاً؟".

سار بضع خطوات مبتعداً وقال:

- "رئيس القسم، إنه يكرهك".

بالتأكيد، الضغينة الشخصيّة، إحدى محفزات الظلم الأساسيّة. لكنني كنت قد قررت القيام بالأمور بطريقة مختلفة هذه المرّة. قلت بحزم:

- "أيها العريف سيمون، خذني إلى السجن رجاءً!".

قال مشدوهاً:

- "ماذا قلت؟ تسلّم نفسك ثانيةً؟".

- "بكل بساطة".
- "لكنني لا أملك أمراً رسمياً باعتقالك بعد".
 - "لا بأس، سآتي معك إلى القسم".

اقتحمت القسم واثقاً ومن خلفي العريف سيمون مسرعاً. درت بحركة سريعة باحثاً عن رئيس القسم المتجهم. لكنّه لم يكن موجوداً، وجدت عوضاً عنه الضابط السمين الطيّب. أمعن لحظة في وجهي حتى تأكد تماماً من هويتي، فقال حينها:

- "ميث ديرارت! أنت رهن الاعتقال يا صديقي!".
 - "أدرك ذلك سيدي".
 - "تدرك ذلك...؟".
 - "نعم سيّدي".

تعجّب لحظة من تكراري لتسليم نفسي للمرة الثانية. قال وهو يرفع خاصرة بنطاله بيساره:

- "ألقوا القبض عليه! وأرسلوه إلى الزنزانة".

قادني ضابط شاب أسمر هزيل البنية إلى زنزانة مظلمة، حيث وجدت نفسي برفقة مجرم متهم قصير، ثرثار كثير الحركة، فضولي كثير الأسئلة، تميّز وجهه الفلجة بين أسنانه...إنه طفل! قال دون مقدمات:

- "مرحباً مرحباً بالرفيق، المتكّلم هو فيوه، ما اسمك؟".

كان ذلك سريعاً حقاً، سرعان ما انغمست في المحادثة جرّاء نظمه المميز للكلمات، قلت:

- "میث، میث دیرارت".
- "ميث...إنها كلمة إنجليزيّة، يونانيّة الأصل، تنطق ميثوس باليونانية، وتعني الخرافة في كلتا اللغتين، اسم جميل".
 - "كم تبلغ من العمريا فتي؟".

- "مرحباً مرحباً بالرفيق، المتكّلم هو فيوه، ما اسمك؟".
 - "هل أنت مريض أم ماذا؟".
 - "بل أنا في أحسن حال، إنما ظننت أنك أصم".
 - "ولم ظننت ذلك؟!".
 - "ناديتني بالفتي وقد سبق وعرفتك بنفسي".
 - إنه غريب الأطوار بكلُّ تأكيد، قلت:
- "اعذرني على قلَّة انتباهي، كم تبلغ من العمريا فيوه؟".
 - "لست أعلم حقاً، توقفت عن العد عند التاسعة".
 - "العد؟ عد ماذا؟".
- "عد الأيام من عيد مولدي الرابع، حتى أبقى على علم بكم أبلغ من العمر، ففي البيئة التي عشت فيها، لا يستخدم الناس التاريخ. لكنني توقفت عن العد حين توصلت إلى أنّ الأمر ليس مهماً حقاً".

صمت مذهولاً مما أسمع، كان يتحدث بسرعة دون انقطاع، حيث يصل كل جملة بالأخرى ببراعة الشعراء والكتّاب، قال حين مل الصمت:

- "لم دخلت السجن سيّد ميث؟".
- "كنت على وشك القيام بجريمة قتل".

حدّق السجين القصير في وجهي بعينين نصف مغلقتين، ثم قال وهو يقوم نحو باب الزنزانة:

- "لا تبدو لى قاتلاً".
- "وكيف حكمت بذلك؟".
- "أنت أبسط من أن تكون كذلك".

أطلقت قهقهة خافتة وقلت بصوت رزين:

- "لا تغتر بهذا الوجه الساذج، خلف هذا القناع السخيف،

يقبع كيان عنف مرعب".

تراجع الفتى فيوه خطوة للوراء وقال بجزع:

- "أنت محق، كانت هذه جملة بنبرة قاتل مرعب".

ضحكت عالياً حين رأيته على حالته تلك جزعاً، بعد أن أمطرني بوابل من عجائب قدراته. لكن اتضح لي، أنه لم يلق مما في جعبته إلا القليل!

أضاف قائلاً:

- "لكن حقًا، في عينيك طيف من بريق لامع، ما تزال تملك بعض الأمل".

قلت:

- "نعم...الأمل".

قال وهو يركل حصاة صغيرة من جهة لأخرى:

- "في بعض الأحيان تكون الحياة أشبه بنفق مظلم، لا يمكنك دائماً رؤية الضوء في نهاية النفق، لكنك إن وصالت التحرّك...فسوف تصل إلى مكان أفضل. إنها مجرّد مقولة

يتناقلها عامّة الناس في الأحاديث المتكررة على قارعة الطريق، لكن ربما تكون مفيدة في حالتك".

أردت إبداء إعجابي بمقولة النفق تلك، لكنّ صوتاً خشناً متقطعاً، قاطعني من خارج الزنزانة حيث قال:

- "نحن البشر نمضي في تشكيل الفلسفات بناءً على تجاربنا الشخصيّة، ثم نتشبّث بها بتعنّت محاولين تمريرها إلى الجميع من حولنا".

يبدو أن الصوت الحكيم كان مألوفاً لدى فيوه الصغير، فقد أشرق وجهه بهجة حين سمعه وأطل بوجهه المليء بالتجاعيد، عجوز هرم ذو سحنة طيبة، يرتدي نظارات مربعة الإطار مضحكة التصميم. قال فيوه بهجة:

- "سيّد أدولف وصلت أخيراً!".

رد العجوز الحكيم:

- "أعذرني لقد تأخرت".

قال فيوه وهو يهزّ رأسه نافياً:

- "كلا كلا، لا عليك".

أثناء مراقبتي لمحادثتهما الدافئة، تذكرت الأحاديث القليلة التي خضتها مع ليزا...أشعر بالحنين حقاً. التقت الي العجوز أخيراً، قال مستفسم أ:

- "من هذا الشاب يا فيوه؟".

قال فيوه وهو يشير إلي بسبابته:

- "ميث ديرارت، قدم إلى الزنزانة قبل قليل".

مددت يدي مصافحاً وقلت:

- "تشرفت بمعرفتك سيّدي".

قال العجوز وهو يضمُّ يده إلى جنبه بحذر:

- "قتلت شخصاً من قبل؟! إنه واضح في عينيك!".

صعقت وتجمدت في مكاني لحظة، قال فيوه:

- "لا لا، هو كان على وشك القيام بجريمة قتل، لكنّه لم يفعل، أليس كذلك ميث؟".

أصبت بالخرس تماماً، فقد بتّ موقناً أنني لا أستطيع الكذب أمام هذين الإثنين، إنهما يقرآنني ككتاب مفتوح، أخفضت رأسي في ضيق ولم أجب بشيء. سحب العجوز فيوه من يده وهو يقول:

- "هيّا يا فيوه، لنغادر من هنا".

وبالفعل سار الإثنان خارج الزنزانة حيث بقيت منكسراً وحيداً. وبعد دقيقة أو اثنتين، سمعت خطوات خفيفة قادمة باتجاه زنزانتي بسرعة، كان الباب مقفلاً حينها، وإذا بوجه تميّزه فلجة الأسنان تلك، يطلّ عليّ من الكوّة الصغيرة في باب الزنزانة الثقيل، يبتسم ويقول:

- "تذكّر يا ميث! ما زلت تملك البريق في عينيك!".

مسحت الدموع الّتي انهمرت دون إذني، وابتسمت إذ شعرت ببعض الأمل...مجدداً.

تساءلت كيف غادر فيوه مع ذاك العجوز دون تواجد أحد الحراس، يا ترى ماذا كانت التهمة الموجّهة إليه؟ لعلها تكون سرقةً أو شيئاً من هذا القبيل.

استلقيت على أرضية الزنزانة الضيقة، "ماذا الآن؟". سألت نفسي قائلاً. لم تحتو الزنزانة على مرحاض حتى، لكني لا أشعر بحاجة للتبوّل، حتى الآن على الأقل. سرحت في المعدن القرمزي المعوّج لباب الزنزانة القرمزي. ورحت أتخيل حيوانات تشكّلها تلك الاعوجاجات المتباعدة، لكنني سرعان ما بدأت بالتثاؤب، وبالفعل درت بجسدي حتى قابلت الحائط المقابل لباب الزنزانة، وبعد دقائق من العبث داخل رأسي، غفوت.

استيقظت وقد حلّ الظلام، ملبيّاً نداء الطبيعة، عبر الكوَة الصغيرة لباب الزنزانة قلت للحارس:

- "سيّدي الحارس، أريد إستخدام المرحاض".

كان الحارس الهزيل متكمًا على مرفقه مستنداً إلى ذراع الكرسي الخشبي، ينازع رغبته الشديدة في إغلاق عينيه والخلود إلى النوم. قال وقد بدا عليه الانزعاج:

- "تبًّا لك! ألا يمكنك أن تؤجلها حتّى الصباح؟!".

- "عذراً سيَّدي، لم أعد أستطيع الاحتمال".

قام الحارس بضجر وأدار المفتاح في قفل الباب، سار فتبعته إلى المرحاض. كان أمامي طابور من ثلاثة سجناء برفقة ثلاثة حرّاس آخرين. عجبت من وجود سجناء بهذا العدد في قسم الشرطة الخاص بقريتنا، وازداد الأمر غرابة حين لم أكن قادراً على تمييز أيّ منهم...

كانوا ثلاثة شبّانٍ لا يتجاوز أكبرهم الثامنة عشرة، نحيلون طويلو القامة، يشبهون بعضهم إلى حدّ كبير، توالى دخولهم إلى المرحاض بينما خاض الحرّاس في نوع من المزاح الثقيل. دلفت أخيراً إلى المرحاض بينما بقي الحارس ينتظر وحيداً.

انتهيت من قضاء حاجتي، ونظرت عبر شرخ في باب المرحاض، فلمحت رأس الحارس الذي كان يقابل الجهة الأخرى في تلك اللحظة. راودتني تلك الفكرة سريعاً...تخيلتها بوضوح وهي تتم بنجاح، وتمنحني ذاك الشعور بالقوة، ذاك الشعور بالنشوة، ذاك الشعور بالعظمة!

حاولت لجم تلك الإرادة الشريرة دون جدوى، قصصت بيدي قطعة طويلة من جانب قميصي الأبيض، لففت طرفيها على كلتا قبضتى، وتسللت ببطء خلف الحارس المسكين.

"سأفعلها! سأغامر وأقوم بها! لربما سيقلل ذلك من احتمالية النجاح...لكنني سأفعلها!".

أطلقت قهقهة شريرة خافتة، فالتفت الحارس نحوي بضعة سنتيمترات، حيث أصبح بإمكانه رؤية وجهي بنظرته الجانبية المرتبكة، كنت حينها...قد أحكمت لفّ القطعة القماشية حول رقبته.

لم يستطع الصراخ، لم يستطع إطلاق أي صوت كان، إنما كان يختنق ببطء، ويفقد الهواء شيئاً فشيئاً...

لقد مات.

لقد فعلتها...

ثانيةً.

هاهاهاهاهاهاهاهاها!!!

ماذا تريد؟!!! تريدني أن أخبرك كيف نجوت بفعلتي؟!! هل هذا مهم أصلاً؟!! أهذا ما يهمك حقّاً؟!! ألا تعلم؟!! ألا تعلم...أنني ما...ما عدت أرى الحدود الّتي عليّ التوقّف عندها!!!!!

لقد دستها...جميعها...بقدمي.

الفصل الأخير: ضفدع مصاب بجنون العظمة. "أوسًا إلك، لم أعد أحمل هزة أعرى ... وقت عن دابلة تفكيري، لم أعد أحمل هزة أعرى ... وقت

تاركاً خلفي جثّةً وحبيساً وبعض الجرحى، غادرت قسم الشرطة متثنّ الخطى، بتّ مقتنعاً أنه ما من شيء يضاهي الوحشيّة الناتجة عن خسارة الضوابط والمحددات، مع كل خطوة أخطوها نحو مزيد من الخراب والدمار، كنت أغرق أكثر فأكثر، في بحر مظلم لا قاع له، وقد بدأت أفقد إحساسي بالواقع.

تصاعدت في رأسي رغبة عارمة بارتكاب مزيد من البشاعة، وكأنني أود التعبير عن حريّتي برسم اللوحة الأكثر ترويعاً على الإطلاق. كيف يمكنني أن أكون أكثر وحشية؟ كيف يمكنني أن أغرق المستمر شعور ذو حلاوة فاتنة...لعلّه الشعور بالجنون.

أريد تذوق المزيد من ذاك الشعور، لذا تابعت السّير، دون توقف، دون راحة، دون نوم، دون نحيب أو زهزقة، بصمت، ليوم كامل. لم أصل إلى أي مكان بالطبع، فقد فقدت الوعي بسبب نقص الغذاء.

استيقظت على سرير مريح في منزل بدا لي مألوفاً للوهلة الأولى، لكنه لم يكن كذلك، أصابتني صدمة صاعقة! ليس لأنني أجهل مكاني...بل لأنني لا أشعر بالفضول لمعرفة ذلك.

التفت إلى يميني فرأيت نفسي في مرآة دائريّة علّقت على الحائط...يا الهي!!!!

تراجعت في السرير بجزع وصرخت بصوت عالٍ منكسر...انه وحش!! وحش بشع مرعب!!! اقتحم الغرفة عجوز هرم ذو سحنة طيّبة، ووجه ملي، بالتجاعيد، يرتدى نظارات مربّعة الإطار. قال ببط، وهو يسير نحوى:

- "لا بأس لا تخف، إنه مظهرك الحقيقي، قررت منحك وجهاً مناسباً".

صرخت وأنا أتحسس وجهى بأصابعي:

- "ما الذي فعلته بوجهي!!".

قال وهو يرجع نظارته إلى الوراء بحركة العارف الخبير:

- "ما حاجتك بوجه وسيم وملامح ساذجة؟ ألست قاتلاً وحشياً بشعاً؟ ألا ترى أن هذا المظهر مناسب لك أكثر؟!".

- "توقَّف!! ماذا تعرف عنّي أنت أصلاً!! أنا مريض!!!!".

- "ما هذه السخافة؟ مريض؟ تريدني أن أصدق ذلك؟!". توقفت عن الكلام...قال حين صمت:

- "لم قتلته!! لماذا فعلت ذلك!! لقد...لقد حدّثك بلطف حتّى اللحظة الأخبرة!!".

عمّ يتحدّث هذا العجوز؟! من الذي قتلته؟ من هو هذا العجوز؟ لا يبدو لي غريباً، لكنّه لا يبدو مألوفاً كذلك. أين رأيته يا ترى...فيوه!

قلت الكلمة الأخيرة بصوت مرتفع، عقّب عليها العجوز قائلاً بعصبيّة جنونيّة:

- "نعم...ها أنت تذكر الأمر!! أخبرني لم قتلته!!".

أنا قتلت فيوه؟!! لا يمكن!! أنا لم أفعل ذلك!! مستحيل!!

- "أنت لا تقول الحقيقة!! ما كنت لأقتله أبداً!!".

ركلني بقدمه فارتطم رأسي بقوّة في الحائط. قال:

- "ها؟! هل تتذكر الآن؟!! ألم يزل مفعول المخدّر اللعين بعد؟!!".

أتذكر...ما الذي سأتذكره...أنا لم أقتل فيوه...لا يمكن أن أقوم بذلك!! في الحقيقة لقد فعلت. أنا أتذكر الآن. لقد فعلتها. حين كنت أسير باحثاً عن إشباع الرغبة في داخلي، الرغبة في تذوق المزيد من ذاك الشعور الساحر، وحين وصلت إلى أطراف قرية صغيرة...

لمحت طفلاً صغيراً يلعب وحيداً.

حاول التحدّث إلي.

لكنني لم أصغ إليه.

حاول الدفاع عن نفسه.

لكنني كنت أفوقه قوّة.

صرخ وطلب المساعدة.

لم يكن أحد بالجوار.

بكى وتوسّل.

لكنني تابعت ضرب رأسه بالحجر.

فارق الحياة.

- "تذكرت كل شيء!! أنت محق، لقد قتلته، بل لقد هشّمت رأسه تماماً، لقد طمست ملامحه البريئة. كم كانت تلك الفلجة بين أسنانه تثير حنقى!! لقد محوتها تماماً!".

قال العجوز وهو ينفث أنفاس الحقد والغضب، بعد أن استجمع قوّته:

- "أنت وبلا شك...أقبح مخلوق على وجه الأرض!".

أنا بالفعل كذلك...لم أكن مريضاً يوماً...أنا إنما...قد سلّمت نفسي لرغباتي دون اكتراث.

قت حين لمحت العجوز يهتز في مكانه بألم، نحو المرآة وضربتها بقبضتي فتكسّرت إلى قطع صغيرة، أدرك العجوز حينها مرادي، لكنني كنت أسرع منه، وبحركة خاطفة قمت بجدّ رسغ يدي اليسرى، فانطلق شلّال مستمر من الدماء. صرخ العجوز ببضع كلمات تشير إلى رفضه أن أموت بهذه الطريقة اليسيرة المريحة، كانت لدّي بضع لحظات قبل أن أفقد الوعي، ما الذي ظنّه هذا العجوز؟ بالطبع لن أسمح له بأن ينال انتقامه.

هذا ما أستحق.

سأنزف حتى الموت.

فأنا الغريق الذي عجز عن العوم.

٠

٠

.

.

.

الغريق

أشعر بالخوف.

•

.

ليزا.

٠

.

النهاية.

نصفي تسسسس	
التالية	
······	
)

"أنت تنزف!"، قال الجد وهرع نحو حفيده فزعاً، "لا بأس إنه مجرد جرح سطحي"، قال الحفيد مطمئناً، "أرني أين هو الجرح"، سأل الجد وهو يتناول كيساً من الضمادات ويسقط بعضها أرضاً من شدة عجلته، "هنا عند رسغي الأيسر تماماً"، قال الحفيد وأشار إلى مكان الجرح، "أخبرتك أن تكون حذراً أثناء استخدامك للسكين"، قال الجد موبخاً بعطف، "أنا آسف، لم أكن حذراً كفاية"، رد الحفيد معتذراً،

انتهى الجدّ العجوز من لفّ الضمادات حول رسغ حفيده المصاب، الذي صعد بدوره إلى غرفته في الطابق الثاني. وحين عمّ الهدوء أرجاء المنزل، وصل قطار المرح الصاخب.

"دق دق، افتحوا الباب حالاً! أنتم رهن الاعتقال!". صرخ صوت من خلف الباب الرئيسي للمنزل، تحرّك الجدّ نحو الباب مبتسماً وقال قبل أن يفتح الباب:

- "وماذا إن رفضت فتح الباب؟".

رد الصوت من الخارج:

- "سأطلق النار!".

علَّق العجوز وهو يفتح الباب:

- "كلَّا كلَّا، أرجوك لا تطلق النار".

دخل المنزل حينها طفل قصير يشبه حبّة الفاصولياء، يرتدي حقيبة مليئة بالكتب والأقلام. قالت حبّة الفاصولياء وهي ترسم نظرة جادّة على وجهها:

- "أحسنت الاختيار أيها العجوز الحكيم".

ضحك الجدّ وقال:

- "اسمح لي أن أخبرك حضرة الضابط، المجرم الذي كنت تبحث عنه...موجود في الأعلى!".

خلعت حبّة الفاصولياء حقيبتها عن ظهرها، وأخرجت منها مسدّساً صغيراً، وصعدت بهدوء على الدرج إلى الطابق الثاني.

كان باب الغرفة التي يقطنها المجرم مفتوحاً، تحرّكت حبّة الفاصولياء ببطء على أطراف أصابعها، وهي تشير بالمسدس إلى الأمام حيث تسير. وقبل أن تلج إلى الغرفة المقصودة، كتمت أنفاسها كي لا تصدر أي صوت، فهي تعلم جيداً، أن هذا المجرم يتمتع بحاسة سمع حادة.

"تجمّد" قال المجرم وهو يشير إلى مؤخرة رأس حبّة الفاصولياء بمسدّس شكّله بيده. "دائماً ما تسبقني بخطوة!". قالت حبّة الفاصولياء وهي تعضّ على أسنانها بغضب. "ما كان عليك أن تفترض أنني موجود في داخل الغرفة، هيّا الآن، ضع سلاحك جانباً وأحضر حقيبتك من الأسفل، وقم بتغيير ملابسك كي نتناول الغداء". قال الحفيد الأكبر، "حسناً"، ردّ الحفيد الأصغر وهو ينزل الدرج خائباً، "لا تنس أن تضع ملابسك في الخزانة، لا أريد أن أرى أي ملابس على الأرض، سأرمي بها في الخارج"، قال الحفيد الاكبر بحزم، عاد الحفيد الأكبر إلى مكتبه بعدما انتهى من تناول الغداء رفقة جدّه وأخيه الصغير، تناول دفتراً لا غلاف له، كتب على صفحته الأولى:

"دفتر العقوبة الشخصيّة"

قلّب الصفحات بسرعة حتى وصل إلى شهر مارس، بحث قليلاً عمّا فعله اليوم مما يوجب العقاب، قال بصوت منخفض:

- "الازدراء...أجد صعوبة في التخلّص من هذه العادة. ما هو أكثر ما أتوق لفعله الآن؟ النوم؟ سأمتنع عنه إذاً".

جذب القلم ودوّن العقوبة في عمود العقوبات، والتاريخ في عمود التاريخ. أغلق الدفتر وقام ليعدّ شيئاً يأكله.

" وَكَأَنَّ سَكَنَا سَرَى في جَسَدي يَحْمِلُ راحَةً وَنَوْمَةَ الطَّلَبِ لا أَدْرِي بِأْيِّ الدَّعُواتِ تَحَقَّقَتْ لِي غَايَتي وَانْقَلَبَ الْهَوْمُ لَدَيَّ سِنَةَ الْهَرْبِ أَعْمانِيَ الْجَليلُ فَضَّ سُهَادِي فَمَا الْتَفَتُّ لِوَقْتٍ دَابِّمٍ مُثْعِبٍ قَوْقٌ عَمِيقٌ لِنَوْمٍ سَرْمَدِي تَوْقٌ عَمِيقٌ لِنَوْمٍ سَرْمَدِي يَجْتَثُّ مِنْ ذِكْرايَ كُلُّ مُتَبِّبٍ "